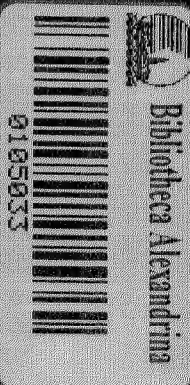


يوسف ميخائيل أسعد

الضمير
وأثره
في الإنسان

دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع
القاهرة



الضمير وأثره في الإنسان

يوسف ميخائيل أسعد

دار الحروب للطباعة والنشر والتوزيع
القاهرة

الكتاب : الضمير وأثره في الإنسان
المؤلف : أ / يوسف ميخائيل أسعد
تاريخ النشر : ١٩٩٨
رقم الإيداع : ٧٩٤٩ / ٩٨
الترقيم الدولي : 6-341-215-977 ISBN

حقوق الطبع والنشر والاقتباس محفوظة للناشر ولا يسمح
بإعادة نشر هذا العمل كاملاً أو أى قسم من أقسامه ، بأى
شكل من أشكال النشر إلا بإذن كتابى من الناشر

الناشر : دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع
شركة ذات مسئولية محدودة

الإدارة والمطابع : ١٢ شارع نوبار لاطوغلى (القاهرة)
ت : ٣٥٤٢٠٧٩ فاكس ٣٥٥٤٣٢٤

التوزيع : دار غريب ٢،١ شارع كامل صدقى الفجالة - القاهرة
ت : ٥٩٠٢١٠٧ - ٥٩١٧٩٥٩

إدارة التسويق :
١٢٨ شارع مصطفى النحاس مدينة نصر - الدور الأول
والمعرض الدائم

المقدمة

فى جلسة صداقة ومودة مع الأستاذ هانى أحمد غريب، تطرّق الحديث إلى موضوع الضمير، فسألنى سيادته عما إذا كنت قد تناولت موضوع الضمير بالدراسة والمعالجة، فقلت له «ربما أكون قد عرضت له لماماً فى ثنايا ما سبق أن قمت بتأليفه من كتب ومقالات، ولكنى أقول بصراحة إنى كنت أنظر دائماً إلى هذا الموضوع باعتباره موضوعاً دينياً أو أخلاقياً، ولذا فإنى كنت أتحاشى الخوض فيه».

فقال لى «ولكن حتى الموضوعات الدينية والأخلاقية يبطنها فكر سيكولوجى، فلم اذا لا تتناوله من الزاوية السيكولوجية التى تعتبر الركيزة التى لا يهملها الفكر الدينى والأخلاقى؟» فكان لملاحظته هذه الأثر الكبير فى ذهنى، وتساءلت بينى وبين نفسى، وماذا يحول دون أن أخوض غمار هذا الموضوع الهام، الذى يعتمل فى قوام النفس البشرية، وأن أحاول أن أكتشف خفاياه السيكولوجية؟

وعلى هذا فإنى عزمت بالفعل أن أحاول سبر أغواره العميقة، حتى يتسنى لى أن أكشف النقاب عما خفى فى

طياته من مناح وتوجهات، قد تعمل على مساعدة من يتناولونه من الزاويتين الدينية والأخلاقية، على الوقوف على مقوماته السيكلوجية، فيضيفون بذلك جانباً هاماً إلى الجوانب التي يركّزون عليها اهتمامهم.

يوسف ميخائيل أسعد

أكتوبر ١٩٩٧

الفصل الأول

معنى الضمير

المعاني المختلفة للضمير:

ينصرف الذهن لدى استخدام لفظ الضمير إلى ما قد يعاتب المرء نفسه عليه من خطايا ينهى الدين عن اقترافها، حتى ولو اقترفها بينه وبين نفسه، أو بينه وبين شخص أو أشخاص. بيد أن للضمير مجموعة من المعاني التي نستطيع تقديمها على النحو التالي:

أولاً - المعنى الاعتقادي: فالشخص المتدين، قد يؤنبه ضميره، لأنه قد سبق أن أخذ يشك في بعض المعتقدات الدينية التي يحضه دينه على الإيمان بها، أو قد يؤنبه ضميره لأنه لم يحاول دُبُّ تلك الشكوك عن عقله وقلبه، بل تمادى فيها. وأكثر من هذا فإنه نقلها إلى غيره من أصدقائه، فشاعت بينهم، وصاروا يشكون في تلك المعتقدات. ولكنه

يحاول الآن الرجوع إلى ما كان عليه من رسوخ فى الاعتقاد الذى شك فيه قبل ذلك، ويعاتب نفسه أشد العتاب على انخراطه فى تلك الشكوك العقائدية، ويتمنى ألا تعاوده مرة أخرى، حتى يظل متمسكاً بجميع معتقداته الدينية.

ثانياً - المعنى العلائقى: وهذا المعنى ينصب على ما يعاتب المرء نفسه بصدده، لأنه شك فى إخلاص شخص معين تربطه به علاقة وثيقة. ذلك أن شخصاً خبيثاً قد أوقع بينهما، وأخذ يشككه فى إخلاصه له، زاعماً أنه يتآمر ضده فى الخفاء، بعيداً عن علمه، فأنصت إلى فرّيات ذلك العدو المفترى الذى زعم أنه صديق صدوق. وكانت نتيجة تلك الوشائات والفرّيات، أن الصديقين انقطعت علاقة الصداقة التى كانت قائمة ومتينة فيما بينهما، فقاطع صاحبنا صديقه المخلص، بعد أن واجهه بالاتهام المنسوب إليه بصرامة، متهماً إياه بخيانتة له من وراء ظهره، وأنه يتظاهر بالصداقة، مع أن الحقيقة أنه يُكن له الكراهية والعداء برغم ما يبديه له من مودة زائفة ومحبة كاذبة. ولكن صاحبنا اكتشف الحقيقة بعد فوات الأوان، وتأكد من سوء نية ذلك المفترى، الذى خطط بخبث ومهارة لى يوقع بينه وبين ذلك الصديق المخلص. فلما أفلق صاحبنا إلى رشده، ووقف على جلية الأمر، أراد أن

يسترد الصداقة الغالية التي فقدوها ولكن دون جدوى. فالصداقة تشبه لوح الزجاج الذى إذا ما تحطَّم، فإن من المستحيل إعادته سليماً كما كان. وهو الآن خاضع لتأنيب ضميره، لأنه تسرع وحكم على صديقه المخلص بأنه خائن.

ثالثاً - المعنى الجنسي: ولقد يتركز تأنيب الضمير بصدد ما تورَّط فيه المرء من علاقات جنسية آثمة. وليس شرطاً أن يكون المرء قد تورَّط بالفعل فى خطيئة الزنا، بل إنه قد يعتبر نفسه خاطئاً، لأنه اشتهى جسد امرأة جميلة وهو سائر فى الطريق، فصار يحس بهذه النظرة الاشتهائية، أنه قد خان زوجته المخلصة، وأن مجرد اشتهاى جانب من جمال جسد غير متوافر لدى تلك التى عاهد الله على تكريس عقله وقلبه لها، إنما هو خطيئة جنسية عظيمة، لابد أن ضميره يؤنبه على اقترافها.



رابعاً - المعنى التقصيرى: فالطالب الذى يهمل فى استذكار دروسه، وقد أخذ يقضى وقت الاستذكار مع بعض الأصدقاء، وهو الوقت الذى كان يجب تكريسه فى استيعاب ما قطع من المنهج المقرر، ولكنه قضاه فى اللهو والعبث، فبعد عودته إلى المنزل أخذ يحس بوخز ضميره الذى أخذ يؤلمه على الوقت الذى أضاعه سُدًى، مما سوف يؤثر فى نتيجته

آخر العام. وكذا فإن الطبيب الذى علم أن مريضه الذى أجرى له عملية جراحية دقيقة قد قضى نحبه، وذلك لأنه قصر فى رعايته ومتابعته بعد إجرائها، فأخذ فى عتاب نفسه، وقد صار ضميره يؤنبه على ما قصر فيه.

خامساً - المعنى التربوى: فالوالدان اللذان يحسان بأنهما قد فشلوا فى تنشئة أولادهما، فصاروا فاشلين فى حياتهم، وذلك بسبب عدم الاهتمام بهم، وترك الحبل على الغارب لهم. فلم يتعاونوا مع المدرسة فى رعايتهم دراسياً، كما أنهما لم يتأكداً من حسن اختيارهم لأصدقائهم. وهما بالمقارنة بين أولادهما وأولاد الجيران الناجحين فى دراستهم، والذين يشهد لهم الجميع بالاستقامة والأخلاق الرفيعة، على عكس أولادهما الفاشلين فى الدراسة، والمنكبين على تعاطى المخدرات، والسهر إلى الفجر كل يوم مع أصدقاء السوء، إنما يحسان بوخز الضمير، لأنهما لم يكونا صالحين لتربية أولئك الأولاد، ولم يفيقا إلى ما كان يجب عليهما النهج وفقه إلا بعد فوات الأوان. فضميرهما يعذبهما، ولكن بغير أمل فى استعادة ما فلت من قبضتهما، وما خرج عن نطاق نفوذهما كوالدين مسؤولين أمام الله عن رعاية أولادهما، والسهر على تربيتهما تربية صالحة.

معانى الضمير من زوايا أخرى:

وبعد أن استعرضنا هذه المعانى الخمسة للضمير، فإننا نستطيع أن ننظر إلى معنى الضمير من زوايا أخرى على النحو التالى:

أولاً - الزاوية العقلية: فلقد يتركز تأنيب الضمير على مآفات المرء الوقوف عليه وإدراكه من بعض المدركات البصرية. افترض أنك سائر فى الطريق، فوجدت شخصاً ما فى مواجهةك، وقد أخذ يحييك وهو مقبل عليك، ولكنك ظننت أنه يحيى شخصاً آخر كان يسير إلى جانبك، وانصرفت لحالك وانصرف هو أيضاً لحاله، ولكن بعد لحظات تذكرت أن ذلك الشخص الذى حيأك ولم ترد على تحيته، هو صديق مرت بضع سنوات لم تقابله خلالها، فتغيرت بعض ملامحه، ومن ثم فإنك لم تتعرف عليه. إنك قد تحس بوخز الضمير لأنه بالطبع قد أخرج لأنه ظن بالتأكيد أنك تتجاهله، ولا ترغب فى الرد على تحيته. وقد يحدث ما يسمى بالإدراك البعدي، أى أنك لم تدرك أن ذلك الشخص الذى كان يبتسم لك ويحييك، إلا بعد انصرافه عنك. وكذا فإن تأنيب الضمير قد ينصب على ما قلّت من الذاكرة. فأنت فى أحد امتحانات الشفوى بالكلية التى تدرس بها، لم تذكر إجابة السؤال الذى وجهه إليك الممتحن، مع أنك تعرف الإجابة جيداً. وبعد

خروجك من اللجنة تذكرت الإجابة ولكن بعد فوات الأوان.
فأخذ ضميرك يؤنبك على الرغم من أنه لا ذنب لك فى هذا
النسيان المؤقت لإجابة السؤال الذى وجهه الممتحن إليك.

ثانياً - الزاوية الوجدانية: فأنت قد تحس بتأنيب
الضمير لأنك تجهمت فى وجه طفل برئ أراد أن يتودد إليك
لأنه ابن أحد الجيران، ولكنك تستثقل دمه، ولا تحس إلا
بالكراهية والمقت والاشمئزاز من مجرد النظر إليه. فعندما
حيالك، فإنك استدرت بعيداً عنه، فشعر الطفل بالخجل
وانصرف لحال سبيله. ولكن بعد أن جلست إلى نفسك، فإنك
أخذت فى تأنيب نفسك على هذا الموقف. وأخذت تقول
لنفسك، «وهل هو الذى جعل نفسه ثقیل الظل، وأليس من
اللائق أن أعامل الناس بالحسنى بفض النظر عن ملامحهم أو
أوضاعهم الاجتماعية؟»

ثالثاً - الزاوية الإرادية: وضمير المرء قد يعاتبه إما لأنه
كان يجب عليه أن يؤدى بعض الأعمال، أو أن يتخذ بعض
المواقف، أو أن يقيم بعض العلاقات ولكنه لم يفعل، أو قام بها
بطريقة رديئة أو ناقصة، أو كان يجب عليه أن يمتنع عن
القيام ببعض التصرفات، وأن يتجنب بعض المواقف، أو أن
يتحاشى بعض العلاقات، ولكنه أقدم عليها، وهو الآن نادم
على تورطه بالانخراط فيها.

رابعاً - الزاوية الخَبْرِيَّة التحصيلية: فالشخص المثقف قد يُؤنبه ضميره لأنه بعد حصوله على درجة الدكتوراه، قد انشغل عن الاستمرار في متابعة التطورات العلمية التي تقع في مجال تخصصه. ومن المعروف أن العلوم جميعاً تتقدم بسرعة هائلة، وتتفتق بعضها من بعض بلا توقُّف. فهو يحس أنه قد تخلَّف عن الركب، وأن بعضاً من طلبته الذين تخرجوا من تحت يديه، قد سبقوه، وأخذوا يواكبون التطورات العلمية التي لم يقف عليها، بل تقاعس عن المثابرة والاستمرار في اكتسابها، والتماشي مع كل ما يستجد في مجال تخصصه. فهو يَعْصُ بنان الندم، لأنه مهما بدأ من جديد في اللحاق بما فاتته، وبما يستجد من معرفة علمية، ومن تكنولوجيات مستمرة في التدفق، فإنه سوف يظل متخلفاً وعاجزاً عن تحصيل ما فاتته، والاستمرار في تحصيل ما سوف يستجد بتدفق خطير وفق متتالية هندسية تضاعفية كما هو معروف.

خامساً - الزاوية الخَبْرِيَّة التصديرية: وهذه الزاوية تتعلق بما يقدمه المرء من إنتاج في مجال ما من المجالات الحضارية الكثيرة، وعلى رأسها المجالات الحضارية الإبداعية. فالواقع أن المبدعين يقدِّرون وقتهم كل التقدير، ويعتبرون أن لكل ثانية من حياتهم قيمة عظيمة. وهم يعتقدون أن الوقوف على ما يستجد في المجال الذي يتخصصون فيه، وينفقون فيه جهدهم

ووقتهم، لا يكتمل العمل فيه إلا بالتصدير. فالتحصيل الخبرى، لا يعدو أن يكون مجرد وسيلة للتصدير الخبرى. فالمؤلف الذى يقصر فى الكتابة يوماً أو بعض يوم، يعاتب نفسه، ويؤلمه ضميره، ويعتبر أن اليوم الذى لا يقدم فيه الجديد غير المسبوق، هو يوم ضائع من حياته.

طبيعة الضمير وكنهه:

ولعل سائلاً يتساءل قائلاً «إنك بما قدمته فى البنود الخمسة الأولى، ثم فى البنود الخمسة الثانية، يقع فى نطاق المجالات أو الزوايا التى يعتمل فيها الضمير، ولكنك لم تقدم لنا شيئاً عن طبيعة الضمير. فالسؤال الذى ينبغى أن يثار هو ما هو الضمير؟» وللدرد عن هذا التساؤل نقدم النقاط التالية:

أولاً - الضمير جهاز نفسى تقيسمى: فما يسمى بالضمير، إنما هو جهاز نفسى يتعلق بجهاز الأنا. فالمرء يهتم بتقييم نفسه بنفسه، كما أنه يتلقى تقييمات الآخرين له، ولما يصدر عنه من أفعال أو نتائج، أو لما يتخذه من مواقف. فثمة ما يعرف بعاطفة اعتبار الذات - Self - regarding - senti-ment وواضح أن تقدير الذات يستمد من مصدرين أساسيين: الأول تقييم المرء لنفسه، والثانى تقييم الآخرين له. فجهاز الضمير يقوم بمعاينة المرء عن التقصير أو عن الانزلاق فى

الأخطاء إذا تبدت نتيجة تقييم المرء لنفسه، أو نتيجة تقييم الآخرين له على غير ما يرام.

ثانياً - الضمير يتصف بشمولية الأنحاء: فهو لا يقتصر على تقييم جانب واحد من الشخصية، كما أنه لا يهمل أى جانب منها، بل يتناول العقل والوجدان والإرادة، والمظهر العام، والتصرفات التى أتاها المرء، وما تردى فيه من أخطاء مقصودة أو غير مقصودة.

ثالثاً - الضمير يتناول الماضى والحاضر والمستقبل: فهو لا يعاتب صاحبه على ما صدر عن سلوكه من فعل أو قول فى الماضى فحسب، بل يحاسبه أيضاً عما يقوم بفعله أو بقوله فى الآن الراهن، وعما سوف يتخذه من تصرفات أو ما سوف يقوله من كلام فى المستقبل. ومعنى هذا أن الضمير ليس مقتصرًا على التأنيب فحسب، بل يضطلع أيضاً بتصحيح السلوك قبل الإتيان به، أو فى اللحظة التى يحدث فيها، وما يتخذه من مواقف فى المستقبل.

رابعاً - الضمير قد يبالغ فى التراخي وقد يبالغ فى القسوة: فالواقع أن هذا الجهاز النفسى قد يكون سويًا، كما أنه قد يتعرض للانحراف إما إلى البلادة والخمول والتراخي، وإما إلى التطرف والمبالغة فى تقدير الأخطاء والمواقف،

والإلحاف على التبكيث والتأنيب، لدرجة أنه قد يدفع
بصاحبه إما إلى الجنون، وإما إلى الانتحار.

خامساً - الضمير قد يكون فردياً كما قد يكون جماعياً:
فالمرء في حياته الشخصية، وفي علاقاته بغيره وبنفسه، وبما
يتعلق بالماضى والحاضر والمستقبل، إنما يكون صاحب ضمير
فردى. ولكن الضمير قد يتسع لى يشمل مجموعة من الناس
قد تكون محدودة، كما أنه قد يكون شاملاً لشعب بأسره.
فعندما ينهزم جيش شعب ما أمام جيش شعب آخر، فإن
ضميره قد يثور ثورة عارمة، فلا يبقى ولا يذر، وينتقم من
قاداته العسكريين، بل قد يقوم بانقلاب عسكرى ضد زعمائه
السياسيين. فالضمير إذن قد يكون ضميراً فردياً، كما أنه قد
يكون ضميراً جماعياً.

* * *

الفصل الثانى

الضمير والتربية الذاتية

الضمير يقيّم ويقوم سلوك صاحبه:

قلنا إن الضمير بصفة عامة، عبارة عن جهاز نفسى تقيّمى تقويمى، بمعنى أنه يقوم بالتمييز بين الخير والشر من جهة، وبين المفيد والضار من جهة ثانية، وبين المناسب من الفكر والعاطفة والإرادة وغير المناسب من جهة ثالثة. ثم إنه يقوم بتبنيه المرء إلى ما يكتنف سلوكه من شر ومن ضرر ومن بُعْد عما يناسبه، وعما يناسب المواقف التى يوجد بها، وما ينسجم مع الظروف التى تكتنف حياته. ولقد يستجيب المرء أو لا يستجيب لما يقوم به ضميره من تمييزات ومن توجيهات، فيُعد الطاقة النفسية التى يتسنى له عن طريقها أن يقوم بتصحيح سلوكه، وتوجيهه الوجهة السوية.

حتمية تعديل السلوك:

وهناك فى الواقع ضرورة حتمية لتعديل السلوك، وذلك

بسبب اعتمال مجموعة من الأسباب التي نستطيع تقديمها على النحو التالي:

أولاً - التوافق مع متطلبات مرحلة النمو: فمما لاشك فيه أن لكل مرحلة عمرية من المراحل التي ينخرط فيها المرء تبعاً من يوم ميلاده حتى انتهاء عمره في الشيخوخة، إذا ما قيّض له أن يظل على قيد الحياة حتى الشيخوخة. متطلبات معينة. فمتطلبات مرحلة الطفولة تتباين عن متطلبات مرحلة المراهقة، ومتطلبات مرحلة المراهقة تتباين عن متطلبات مرحلة الشباب ومتطلبات مرحلة الشباب تتباين عن متطلبات مرحلة الكهولة (بين ٣٠ ، ٥٠ سنة)، ومتطلبات مرحلة الكهولة تتباين عن متطلبات مرحلة الشيخوخة.

ثانياً - التوافق مع متطلبات الوضع الاجتماعي: فلكل حرفة أو مهنة أو وظيفة أو وضع اجتماعي، المتطلبات التي يجب أن يوفرها المرء لنفسه، حتى يتحقق له التقدم في حرفته أو مهنته أو وظيفته أو في الوضع الاجتماعي الذي بلغه.

ثالثاً - التوافق الثقافي: فكل خبرة معرفية أو مهارية أو علائقية، يكتسبها المرء وتتفاعل مع ما سبق له اكتسابه، تستلزم تعديلاً في سلوكه، حتى يتم له التوافق معها.

رابعاً - التوافق الأخلاقي: فثمة مستويات كثيرة من

السلوك الأخلاقى. وكلما تسَلَّق المرء مراقى أخلاقية أرقى من المستوى الأخلاقى الذى كان عليه قبلاً، أو رغب فى ذلك التسَلُّق والارتقاء، فيكون من المحتمَّ عليه أن ينبذ بعض أساليبه الأخلاقية التى كان يتلحَّف بها، والتى لم تُعد مناسبة للمستوى الأخلاقى الذى توصلَ إليه أو الذى يصبو لتحقيقه فى شخصيته، كما يكون عليه أن يتلحَّف بأساليب سلوكية أخلاقية جديدة لم يكن قد اكتسبها قبل ذلك.

خامساً - التوافق الدينى: فكلما تعمق المرء فى دينه، وتذرع بالأفكار والمبادئ والقيم الروحية، فإنه يحذف من سلوكه ما يرى أنه لا يتفق مع ما استفاده بعد تعمقه الدينى، كما أنه يضيف إليه عناصر جديدة تتفق مع المستوى الدينى الراقى الذى بلغه.

ديناميات الضمير:

وعلىنا بعد هذا أن نلقى الضوء على الديناميات السلوكية التى تعتمل فى جهاز الضمير، والتى تؤدى إلى تلك التطورات السلوكية التى عرضنا لها فى البنود الخمسة السابقة، والديناميات هى:

أولاً - دينامية الارتقاء: فالإنسان مجبول على الارتقاء المستمر. ولكن قد تحيط به مؤثرات تربوية أو اجتماعية

فاسدة تُعيق تقدمه الارتقائي، أو تعمل على إفساد طبيعته الارتقائية التي جُبل عليها.

ثانياً - دينامية تصحيح المسار: وطالما أن المرء مجبول على الارتقاء، فإنه حتى إذا تلوّث سلوكه، أو انحرف عن المسار الذى كان ينبغى أن يسلكه، فإنه يحاول نقض غبار الخطأ أو الشر عن شخصيته، وأن يتخلص من المقومات التي تحُول دون تقدمه، ويأخذ في انتهاج طريق أفضل من الطريق الذى انخرط فيه، وضرب في إثره.

ثالثاً - دينامية التشوّف المستقبلى: ويتمتع الإنسان أيضاً بطبيعة تطلمية إلى المستقبل، فهو إلى جانب تصفحه للماضى، ووقوفه على الحاضر، فإنه يتطلع إلى ما سوف يتأتى عن أحداث الماضى والحاضر من نتائج فى المستقبل. ولذا فإنه يستبعد بعض العوامل التى يرى أنها يمكن أن تُعيق تقدمه نحو المستقبل الجيد، بينما تؤدى به إلى مستقبل ردىء. وبالإضافة إلى هذا فإنه يضيف المؤثرات التى تعمل على الارتقاء بمستواه فى المستقبل القريب وفى المستقبل البعيد على السواء.

رابعاً - دينامية عقد المقارنات: فالإنسان لا ينكفى على نفسه باستمرار، فلا يرى ويتأمل من يحيطون به من

أشخاص، ولا يقف على الميزات الخلقية والثقافية والاقتصادية التى حازوها، بل إنه يقارن نفسه بمن بزَّوه وتفوّقوا عليه فى مجال أو أكثر من مجالات الحياة المتباينة. وبتعبير آخر فإنه يقف على النقائص التى تشوب شخصيته، كما أنه يقف على الميزات التى حازها، والمستويات الشخصية التى بلغها، ثم إنه يتحسس الطرق التى إذا ما سار فيها، فإنه سوف يصل إلى المستويات السامية التى بلغها غيره. فهو لا ينقل عن المتفوقين عليه فى المجالات المختلفة، الأهداف التى ترسّموها ثم بلغوها فحسب، بل إنه يستعين أيضاً بالوسائل الفعالة والمجدية التى أهلكتهم لبلوغ تلك المستويات العليا من السلوك، وجعلت شخصياتهم ممتازة.

خامساً - دينامية التفاعل بين المثل العليا وبين الواقع السلوكى: فالواقع أن ما يستولى على قلب المرء وعقله من مثل عليا دينية أو أخلاقية أو اجتماعية أو اقتصادية أو ثقافية، تتفاعل مع واقعه الشخصى، بحيث قد يتأتى عن ذلك التفاعل الاقتراب من تلك المثل العليا، وذلك بفضل ما يبذله من جهد فى سبيل تحقيق الخطط التى وضعها للاقتراب منها، ولحدوث التفاعل بين واقعه وبينها.

الوسائل التربوية لتقوية الضمير: لا

وعلىنا أن نتساءل عن الخطوات التربوية التى يجب على

المرء اتخاذها فى سبيل تقوية ضميره، وتسليحه بالوسائل
الفعالة فى تسيير سلوكه والنهوض به إلى مستويات رفيعة،
وهى على النحو التالى:

أولاً - توفير الوقت للاعتكاف: فالواقع أن الأشخاص
الذين يظلون فى اتصال مستمر أو شبه مستمر بالناس،
لقضاء المصالح، أو للنهوض بالمهام الموكولة إليهم، كثيراً
ما يفقدون جانباً من قوة الضمير، فلا تكون لديهم ركيزة ذاتية
يرتكزون عليها، بل يندمجون فى الواقع الخارجى، وينصهرون
فيه، وبالتالي فإنهم لا يحسون بذواتهم، ولا يتمكنون من عقد
مقارنات ومفاضلات بين أحوالهم النفسية وبين المستوى الذى
بلغه بعض الأشخاص الذين يعتبرون مثلاً عليا يجب التأسى
بها، ويوجدون بالواقع الخارجى أو كانوا يوجدون به، ثم احتلوا
أماكنهم فى سجل التاريخ. ويترتب على اندماجهم فى الواقع
الخارجى دون الالتفات إلى أنفسهم، ودون الوقوف على
المستوى النفسى الذى بلغوه، أنهم لا يستطيعون الاستفادة من
تلك المثل العليا دون أن يقتبسوا منهجها فى الحياة، بل يكون
همهم الأول والأخير، هو تحقيق التجانس بينهم وبين الواقع
الخارجى، بل والانصهار فى بوتقته.

ثانياً - تحاشى المؤثرات السلوكية الرديئة: فكما أن
الطبيب يأمر مريضه بأن يتجنب المصادر والمؤثرات التى

تؤذيه صحياً، وتزيد من تدهور قوامه البيولوجى، كذا فإن التربية الذاتية، التى يرمى أن تعمل على تقوية الضمير الشخصى، تكون نقطة البداية فيها، متمثلة فى البعد عن المؤثرات الرديئة التى تعمل على الحط من مستوى الشخصية. فكلما تخلّص المرء من النقائص والمعوّقات التى تعمل على إبطال أو إضعاف الضمير، فإنه يكون قد عمل بذلك بطريق غير مباشر على تقوية ضميره، وإفعامه بالحيوية والصحة.

ثالثاً - ترقيق المشاعر بالتربية الجمالية: فالواقع أن الطريق المؤدى إلى صحة الضمير وتقويته، هو طريق الجمال. فمن يبدأ بتذوق ما تشتمل عليه الحياة من جمال، وما أبدعه الفنانون من صيغ جمالية مرئية أو مسموعة، فإنه يكون بهذا قد بدأ أيضاً فى تذوق الحق والخير. فثالثات الحق والخير والجمال، مترابط بعضها مع بعض بحيث إن من يبدأ بالتفاعل مع الحق، فإنه يكتسب القدرة على التفاعل مع الخير والجمال، ومن يتفاعل مع الخير، فإنه يكتسب القدرة على التفاعل مع الحق والجمال. ولكن الواقع أن تذوق الجمال أسهل وأيسر من التفاعل مع الحق والخير. وعلى أية حال فإن تقوية الضمير تتأتى للمرء إذا ما اكتمل لديه هذا الثلاث فى قوامه النفسى.

رابعاً - التمرُّس بالعبادات الجيدة: فالواقع أن من أهم العوامل التي تؤدي إلى تقوية الضمير، تمرُّس المرء بالعبادات العقلية والعبادات الوجدانية والعبادات الأدائية والعبادات الاجتماعية الجيدة. فالاعتیاد على هذه العادات الأربع، يجعل المرء أكثر حساسية لأي انحراف عن مسارها. وقد سبق أن قلنا إن للضمير وظيفة تقييمية وأخرى تقويمية. فأى انحراف عما اكتسبه المرء من هذه العادات الأربع، يثير انتباهه، ويشعره بأنه قد انحرف عن مسارها، فيبدأ ضميره فى إصلاح ما اعوج منها. ويتعبّر آخر فإن العمود الفقارى للسلوك الطيب، هو تلك العادات التى يكتسبها المرء، ويتمرُّس بها، ويتقن أدائها، بحيث يحس بالضيق والتبرُّم إذا هو انحرف فى أدائها ولو قيد أنملة.

٥ خامساً - التكفير عن الانحرافات السلوكية: ومن وسائل تقوية الضمير، قيام المرء بالتكفير عما انحرف فيه من سلوكيات. بيد أن التكفير لابد أن يكون متمشياً مع الدرب نفسه الذى حدث فيه الانحراف. فإذا كان الانحراف عقلياً، فلا بد أن يكون التكفير عن الأخطاء العقلية عقلياً. فمثلاً الطالب الذى يحس بوخز الضمير بعد رسوبه فى الامتحان، فإن عليه أن يكفّر عن إهماله لدراسته، والتقاعس عن

الاستذكار الجيد، وذلك بالانكباب على استيعاب المناهج
المقررة بالطريقة السليمة. وقس على هذا جميع الانحرافات
السلوكية. فالتكفير عن تلك الانحرافات، يعمل بلا شك على
تقوية ضمير المرء بصدد الزاوية التي يؤنبه بإزائها.



الفصل الثالث

الضمير والذكريات

الذكريات الحية والذكريات المنسية:

من المعروف أن الإنسان يتصل بالواقع الخارجى عن طريق حواسه الخمس، فيقف على الأحداث والمواقف، التى قد تبعث فى قلبه السرور والرضا، كما قد تترك فى نفسه أثراً رديئاً يتلقاه بواسطة حاسة أو أكثر من حواسه الخمس. ثم إن جانباً من تلك الأحداث السارة ومن الأحداث المكدرّة يترسّب فى الذاكرة. فليست جميع الوقائع التى يدركها المرء بحواسه، تترسّب فى ذاكرته، كما أن بعض ما ترسّب بالفعل فى الذاكرة يعلوه النسيان، سواء كان نسياناً مطلقاً، بمعنى التلاشى التام من الذاكرة، أم كان نسياناً نسبياً، بمعنى أنه يعمل على خفوت قوة الذكريات التى ترسبت فى الذاكرة.

الذكريات وبطانتها الوجدانية:

والذكريات التى تحتفظ بها الذاكرة كما استقبلتها، أو بعد أن تضعف أو تدخل عليها بعض التفهيرات بواسطة

المخيلة، لا تكون مجرد مدركات ذهنية خالية من المقومات الوجدانية الانفعالية، بل إنها تكون متلبسة بطاقة وجدانية انفعالية كبيرة ومحتدمة، أو تكون متلبسة بطاقة وجدانية انفعالية صغيرة وخافتة. ومن هنا فإن الذكريات يمكن أن تؤثر فى القوام النفسى للمرء بدرجة أو بأخرى من درجات التأثير.

الذكريات اللاشعورية:

وبعض الذكريات المضممة بالانفعالات، والتي تشكّل خطراً على الشخصية، تهبط إلى اللاشعور، حيث تختبئ هناك، ولا يتذكرها المرء، ولكنها قد تُطل من النوافذ السلوكية، فيكون الشخص المضمع بتلك المكبوتات اللاشعورية عصبياً أو مُقَدِّماً على تصرفات رديئة كالسرقة المرضية والمخاوف المرضية والوسواس والأعمال القهرية، كما أنه قد يتعرض للأحلام المزعجة والكوابيس فى أثناء انخراطه فى النوم، أو قد ينخرط فى غير ذلك من ألوان السلوك التى تشير إلى هيجان مكبوتاته اللاشعورية.

علاقة الضمير بالذكريات:

وبعد هذه المقدمة التى حاولنا فيها أن نميط اللثام عن الذكريات ودورها فى سلوك المرء، فإن علينا أن نعرض للعلاقة بين الضمير وبين الذكريات، فنجد أن هذه العلاقة تتبدى فيما يلى:

أولاً - ذكريات الحب: فلقد يتذكر أحد الشبان المتزوجين، تلك الفتاة التي أحبها خلال مراهقته أو شبابه، وتوطدت بينهما العلاقات الحميمة، وتعاهدا على أن يحافظا على حبهما، وأن يعملوا على تقويته واستدامته، مهما كانت الظروف، ومهما تریّست بهما العقبات. ولكنه بالأسف خان حبيبته، واستبدل بحبه الأول حباً آخر بعد أن مال قلبه إلى إحدى الشابات، لا لأنها أكثر جمالاً أو جاذبية من حبيبته الأولى، بل لأنها وفّرت له الإمكانيات المادية التي جعلت إتمام الزواج بها أمراً ميسوراً. ولكن ذكريات حبه الأول ما تزال تخيم على ذاكرته من آن لآخر، كما أن ضميره يعاتبه، وينقص عليه حياته، فيتهمه بأنه شخص خائن، ولا بد أن تلك المسكينة التي عاهدته على الاستمرار في التعلّق به إلى آخر نسمة من حياتها، قد صارت تكرهه وتحتقره، لأنه نسى أو تناسى ما قام بينهما من علاقات حميمة وعميقة، وقد فضل عليها تلك الشابة التي تزوجها لا لشيء إلا لأنها غنية. فهو في نظرها إذن شخص ليس له قلب، بل تغبويه الماديات، وقد ضرب بالعواطف النبيلة عرّض الحائط، فلا يعرف الإخلاص إلى قلبه سبيلاً.

ثانياً - ذكريات الفشل: فلقد تكون الذكريات متصلة بالفشل في الدراسة. من ذلك مثلاً أحد الموظفين بمخازن

إحدى المؤسسات الحكومية. كان قد التحق بعد حصوله على الثانوية العامة بكلية الحقوق، ولكنه كان غير مواظب على حضور المحاضرات، كما أنه كان يقضى الوقت مع مجموعة من أصدقاء السوء فى الملاهى والأندية الليلية، وكانت النتيجة هى تكرار رسوبه وأخيراً فصله من كلية الحقوق. ومات أبوه الذى كان يعوله، فأشفق عليه أحد الجيران من أصحاب النفوذ، فسعى لتعيينه بتلك المؤسسة الحكومية. وهو الآن يئن تحت وطأة الغلاء، ولا يكاد يغطى نفقات معيشته هو وأسرته. إنه لا يكاد يحتمل الحياة، لأن ضميره يعذبه لأنه أضاع فرصة التعليم الجامعى من بين يديه، وقد كان بالإمكان أن يكون من مشاهير المحامين أو المستشارين، وبخاصة أنه كان من الطلبة اللمعين بالمرحلة الثانوية فى الخطابة والإنشاء، وأنه على مستوى مرتفع من الذكاء، والقدرة على التحصيل. ولكن ما الفائدة الآن من الندم على ما فلت من قبضته؟ بيد أن ضميره لا يتركه لحال سبيله، بل يضغط عليه بشدة لدرجة اليأس من الحياة.

ثالثاً - أول شمة: رَبُّ أسرة من الموظفين، قُبِضَ عليه متلبساً بجريمة الاتجار فى الهروين. وهو الآن وراء القضبان بعد أن أصدرت عليه المحكمة حكماً بالسجن المؤبد، ففقد وظيفته وأسرته وأصدقاءه. إن ضميره يعذبه باستمرار، ويندم

لأنه انصاع لأحد أصدقاء المقهى الذى كان يتردد عليه كل ليلة. أغراه ذلك الصديق الخبيث بأن يأخذ شمة واحدة من لفافة أخرجها من جيبه وأعطاهها له. فشعر بأنه يمتلك الدنيا بأسرها بعد دقائق من تعاطيه لذلك المسحوق عن طريق الشم. وفى لقاء الليلة التالية مع صديقه الخبيث، طلب منه أن يناوله لفافة أخرى كتلك التى أسعدته كثيراً بشمها فى الليلة السابقة، فرفض وقال له إنه يستطيع أن يحصل على ما يشاء من تلك اللفائف المنعشة، إذا وافق على ترويج الهروين معه بين أصدقاء المقهى وزملاء العمل، وبخاصة إنه سوف يريح من وراء هذه التجارة ملايين الجنيهات. فوافق وقابل التاجر الكبير، وصار من المروجين، ولكنه فوجئ بشرطة المخدرات تقبض عليه متلبساً بإحراز الهروين والاتجار فيه، وكانت النتيجة هى الإلقاء به فى السجن المؤبد. إن الذكريات التى تُلحف عليه من ساعة إلى أخرى مصحوبة بوخز الضمير، لأنه لم ينهج الطريق المستقيم. وقد كان أحرى به أن يتقى الله، فلا يقبل الاقتراب من هذا الوباء الملعون، حتى لا تكون نهايته كئيبة كحاله الآن.

رابعا - تفويت فرصة سانحة: شاب مثقف وموهوب فى الترجمة الفورية من الفرنسية إلى العربية، وقد ظهر نبوغه فى هذه الترجمة فى أثناء دراسته بكلية الأسنان. لاحت له

فرصة سانحة للتقدم حثيثاً فى هذا المجال. عرض عليه أحد جيرانه وظيفة مغرية بإحدى السفارات الأجنبية بمرتب سخى، ولكن بشرط أن يتفرغ تماماً ويستقيل من وظيفته كمدرس بعد أن يتم تعيينه بالسفارة الأجنبية مباشرة. طلب صاحبنا من جاره إعطاءه فرصة للتفكير والتوصل إلى قرار سوف يبلغه به. قال له جاره إن السفارة فى عجلة من أمرها، وهى لا تسمح بأكثر من أسبوع لكى يتسنى له خلاله التوصل إلى قرار حاسم. ولكن صاحبنا أخذ يتردد، ومضى شهر قرر بعده أن يقبل الوظيفة التى عرضها عليه جاره بالسفارة الأجنبية، وتوجه إليه، وأخبره بقراره، ولكن جاره أفاد بأن الفترة التى انتظره خلالها قد انقضت، وأنه قام بعرض الوظيفة على شاب آخر فقبلها واستلم بالفعل عمله بالسفارة. فما كان من صاحبنا إلا أن انصرف متحسراً على ضياع هذه الفرصة السانحة. وما يزال ضميره يعذبه لأنه أضاع فرصة لا يمكن أن تواتيه مرة أخرى. ومرت على ذلك سنوات عديدة، ولكنه كلما تذكر تلك الواقعة المؤلمة، يتحسر ويعذبه ضميره.

خامساً - بالإهمال مائت زوجته وأولاده: كان أحد أصحاب المشروعات السياحية الكبيرة، يصطحب زوجته وأولاده الثلاثة فى سيارته إلى حيث قريته السياحية التى أنشأها بالشاطئ الشمالى. ولكن فى أثناء الرحلة أحس بأن

الفرامل خفيفة. فكان أمامه خيار من خيارين: إما أن يوقف سيارته ويترك زوجته وأولاده بها، ويركب أى مواصلة إلى أقرب ميكانيكى، ليعود به فيصلح الفرامل، وإما أن يستمر فى قيادتها إلى حيث يجد من يقوم بإصلاحها. وبالفعل اختار هذا القرار الأخير، واستمر فى قيادة السيارة. ولكن الفرامل كانت آخذة فى الضعف شيئاً فشيئاً إلى أن بطل مفعولها تماماً. ففوجئ بسيارة شحن فى مواجهته، فداس على الفرامل التى بطل مفعولها، فلم تستجب، ومن ثمَّ فإنه لم يتمكن من التوقف، واصطدمت سيارته بالشاحنة الضخمة، وكانت النتيجة موت زوجته وأولاده الثلاثة ونجاته هو شخصياً، ولكن بعد أن أجريت له عملية جراحية فى السلسلة الفقارية. وهو الآن فى حالة ذهول وشلل نصفى. وكلما أفاق من ذهوله، فإن ضميره يهاجمه بغير هوادة، وهو يعصّ بنان الندم، لأنه لم يتوقف بسيارته إلى أن يحضر الميكانيكى ويصلح فراملها، ولكن لا ينفع الندم بعد العدم.

ما وظائف الضمير بإزاء الذكريات؟

وعلىنا بعد هذا أن نعرض لوظائف الضمير بإزاء الذكريات، فنجد أن تلك الوظائف يمكن أن تتحدد على النحو التالى:

أولاً - الوظيفة التوبخية: فمن الواضح من الحالة الأخيرة التى عرضناها لتوّنًا، أن ضمير ذلك الرجل الذى فقد زوجته وأولاده الثلاثة بسبب عدم حكمته وتسرعهُ للوصول إلى قريته السياحية، يوبخه أشد التوبخ، ويؤله أشد الألم. فالشعور بالخطأ سواء فى الفكر أم فى التصرف، يعرّض المرء لتوبيخ ضميره له بعنف. ولكن شدة عنف توبيخ الضمير، تتوقف على مدى الخسائر التى يُمنى بها المرء بسبب عزوفه عن الاختيار السليم.

ثانياً - الوظيفة التأديبية: فالطالب الذى يرسب فى الامتحان بسبب انصرافه عن الاستذكار والتثامه فى مجموعة من أصدقاء السوء، وقضاء الوقت الذى كان ينبغى استثماره فى الاستذكار، فى اللهو والعبث، فقام ضميره بتأنيبه، إنما يكون تأنيبه له بقصد تأديبه وإصلاح سلوكه، حتى يكون سلوكًا مستقيمًا فى المستقبل.

ثالثاً - الوظيفة التبصيرية: ولقد يعمل الضمير على تبصير المرء بالفرص السانحة قبل ضياعها. فلقد تكون مقاطعة أصدقاء السوء، وانتهاج طريق الاستقامة، نتيجة لصحوة الضمير. فكم من أشخاص أفادوا من التربية الذاتية التى كان الضمير هو العامل الأساسى فيها، لتقديم الخيار

الحكيم أمام المرء من بين الخيارات الكثيرة الضارة أو قليلة النفع. فالضمير لا يتوقف عند حدود التأنيب والعتاب فحسب، بل إن له وظيفة إيجابية تبصيرية بما يجب الانتحاء إليه، وعدم التفريط فيه. فالصراف الذى تراوده فكرة الاختلاس، ولكن ضميره يحذره من الإقدام على هذا التصرف الدنى، فتكون نتيجة عدم إقدامه على الاختلاس، إحرازه ثقة صاحب المؤسسة التى يعمل بها، فيفدق عليه المكافآت، ويوليه ثقته الغالية. فضميره لم يحذره من الاختلاس فحسب، بل كان لوظيفة ضميره أيضاً ثمار طيبة فى اتساع مجال الرزق أمامه، ودعم سمعته الطيبة والمكانة المرموقة فى عمله.

٥ رابعاً - الوظيفة الإلهامية: وفى ضوء تعريفنا للضمير بأن له وظيفة إيجابية إلى جانب وظيفته السلبية، فإننا نستطيع أن نقرر، أن الكثير من الأفكار الإلهامية تتأتى عن اعتماد الضمير فى القوام النفسى للمرء. ذلك أن ثلوث الشخصية متكامل بعضها مع بعض. فالفكر والوجدان والإرادة يتأتى عن تفاعلها بعضها مع بعض، قوام عام. فالضمير لا يمنع الأفكار الرديئة فحسب، ولا يحاسب المرء على ما تردى فيه من أفكار رديئة فحسب، بل إنه يلهم المرء أيضاً بالأفكار الإبداعية. فكلما تلاشت الأفكار الرديئة من ذهن المرء، فإن الأفكار الجيدة تهبط عليه. وما يقال عن الفكر، ينسحب أيضاً بإزاء

الوجدان. فالواقع أن الوجدان عبارة عن خامة يمكن تصنيعها للخير، كما يمكن تصنيعها للشر. ولكن لابد من القيام بتصنيعها. وطالما أن الضمير يوجه المرء إلى ما هو خيره، فإنه يقوم بتصنيع الوجدان بطريقة جيدة، فيحيله إلى عواطف نبيلة بناءً. وكذا الحال بالنسبة للإرادة. فهي إما أن تتجه إلى السلوك الإيجابي البناء، وإما أن تتجه إلى السلوك السلبي الهدام. والضمير الذي ينبه المرء ويحذره من التردى في السلوك السلبي الهدام، يوجهه أيضاً إلى انتهاج السلوك الإيجابي البناء.

٢٧

خامساً - الوظيفة التنبؤية الإنقاذية: فالكثير من الأخطار الجسدية والأخطار المادية والأخطار الأدبية، يقوم الضمير بالتحذير من الوقوع في مخالبتها، أو التعرض لها. فليست وظيفة الضمير مقتصرة على الندم بعد التعرض للأخطار التي كان من الممكن تحاشيها، أو التخفيف من أضرارها، بل إن له وظيفة تنبؤية أيضاً بما يمكن أن يتعرض له المرء من أخطار، فيحذره من التعرض لها، وإصابته بما لا تحمد مغبته منها.

* * *

الفصل الرابع

الضمير والمكبوتات اللاشعورية

أنواع متباينة من اللاشعور:

علينا أن نبدأ أولاً بإلقاء الضوء على مفهوم اللاشعور، حتى نكون على بينة من الخلفية التي نناقش في ضوءها علاقة الضمير بالمكبوتات اللاشعورية. فالزوايا الهامة التي يجب أن ننظر منها إلى اللاشعور سوف نقدمها على النحو التالي:

أولاً - اللاشعور البيولوجي: فجميع العمليات البيولوجية التي تبدأ منذ اللحظة الأولى التي يتكوّن فيها الجنين في بطن أمه، ومروراً بمراحل عمره التالية حتى موته في الشيخوخة أو قبلها، إنما توصف بأنها عمليات بيولوجية لاشعورية. من ذلك على سبيل المثال عملية الهدم والبناء Metabolism وعمليات هضم الطعام، والتعاون الذي يتم فيما بين التنفس ودقات القلب، بل وعمليات النمو التي بمقتضاها ينتقل المرء من

مرحلة عمرية إلى المرحلة العمرية التالية، إلى آخر العمليات البيولوجية التي لا يدركها وتحدث بطريقة لاشعورية.

ثانيًا - اللاشعور الحركي: فالكثير من الحركات التي تستحيل إلى عادات، يأتيها المرء عبّر مراحل عمره، وفي أثناء يقظته ونومه، تكون منخرطة في إطار هذا اللاشعور الحركي. وكذا فإن ما يتم للمرء اكتسابه من حركات ومن مهارات حركية كالكتابة على الآلة الكاتبة أو على لوحة مفاتيح الكمبيوتر، أو العزف على مفاتيح البيانو أو على أوتار العود، وغير ذلك من مهارات حركية، إنما تعتبر حركات منخرطة في نطاق اللاشعور الحركي. فالشعور في قوام الفنان الذي يعزف على البيانو أو العود، وكذا المؤلف الذي يستخدم الآلة الكاتبة أو الكمبيوتر في تدبيج مؤلفاته، يطفو على سطح اللاشعور الحركي، بمعنى أن هناك مستويين يمتلآن في نشاط الفنان أو المؤلف هما: مستوى اللاشعور الحركي، ومستوى الشعور الإبداعي، الذي يكون كل منهما بإزائه في حالة وعى وسيطرة ذهنية على ما يؤديه أو يؤلفه.

ثالثًا - اللاشعور العقلاني: فالواقع أن ما يقوم المؤلف بإبداعه من فكر، لا يكون جميعه على مستوى الشعور والإدراك الواعي، بل إن استغراقه في الكتابة، قد يحمله على الصدور فيما يقوم بإبداعه من نثر أو شعر أو قصة عن

للاشعور. والواقع أن ما يتخبط في نطاق الإلهام، إنما هو في الواقع انبثاق من اللاشعور، بمعنى أن الإبداعات الإلهامية لا تتأتى للمبدع إلا إذا كان دالفاً في نطاق اللاشعور العقلاني.

رابعاً - اللاشعور الوجداني: فالعقد النفسية والمكبوتات الوجدانية التي لا يحس بها المرء وهو في حال اليقظة، والتي تستخفي عنه في حياته اليومية وعلاقاته بالآخرين، إنما تدخل في نطاق اللاشعور الوجداني. فالشخص الذي نقابله لأول مرة ونستشعر بإزائه الكراهية، تكون هناك في الواقع مكبوتات لاشعورية وجدانية معتملة في قوامنا، هي التي تحملنا على الشعور نحوه بالكراهية.

خامساً - اللاشعور الجماعي: فثمة لاشعور يعتمل في قوام كل مجموعة، سواء كانت مجموعة صغيرة، أم كانت مجموعة كبيرة. فلكل أمة لاشعورها، الذي يتضمن في نطاقه الرواسب الخبئية التي ترسبت في لاشعورها عبر آلاف السنين.

علاقة الضمير بالمكبوتات اللاشعورية:

وبعد أن استعرضنا هذه المعاني الخمسة للاشعور، فإن علينا أن نحاول إمطة اللثام عن علاقة الضمير بالمكبوتات اللاشعورية، فنجد أن تلك العلاقة تتمثل فيما يلي:

أولاً - بالنسبة للأخطاء التي ترسّبت في لاشعور الفرد أو المجموعة: فإن المكبوتات اللاشعورية، تقور من وقت لآخر، في حالة احتجاج وندم، وذلك لأن الضمير يلعب بإزائها دور المعاتب أو الساخط أو المحتج على الفرد أو على المجموعة. ويتبدى الاحتجاج في نطاق سلوك الفرد، سواء في حال اليقظة أم في حال النوم، أم في ثايا التصرفات التي تصدر عنه والتي يحكم عليها بأنها غير سوية، وفي بعض الحالات يكون الاحتجاج اللاشعوري الفردي بالإقدام على الانتحار، كما يكون الاحتجاج اللاشعوري الجمعي بالإقدام على الثورة والتخطيط والقتل الاعتباري الجمعي. والشاهد على ذلك ما يحدث في هذه الأيام في الجزائر. فاللاشعور الجمعي هناك يعبر عن مكبوتاته اللاشعورية الجمعية، كاحتجاج على ما عاناه الشعب الجزائري من الاحتلال الفرنسي، وعلى طمس معالم الحضارة العربية هناك، وإحلال اللغة الفرنسية محل اللغة العربية في التعامل في الحياة اليومية.

ثانياً - تصحيح المسار: فالضمير الفردي أو الضمير الجمعي، لا يقتصران على العتاب والاستياء والثورة، بل ينحو أيضاً إلى تنبيه الفرد أو الجماعة إلى ما يجب اتخاذه من خطوات وإجراءات لتعديل السياسة الشخصية أو السياسة الجمعية المتبعة، والعدول عن الخط السلوكي الخاطئ أو

المُزْرَى، وإحلال محله خطأً جديداً مناسباً لتحقيق التقدم والتخلُّص من الرواسب اللاشعورية التى تقور من وقت لآخر معلنة السخط والاحتجاج.

ثالثاً - الثأر والانتقام: ومن الوظائف التى يضطلع بها الضمير بإزاء الرواسب اللاشعورية المُمِضة، التى يتبرم بها الفرد، أو تتبرم بها المجموعة، الأخذ بالثأر من المُتسبب فى إعاقة التقدم، أو فى النيل من الكرامة، أو فى الحط من قيمة المرء أو الجماعة، أو المتسبب فى الحرمان من الضروريات اللازمة لاستمرار الوجود، أو لتحقيق الرخاء وتبوؤ المكانة المرموقة بين الأتراب فى حالة الفرد، أو بين المجموعات الأخرى فى حالة الجماعات والشعوب والدول.

رابعاً - توفير الطاقة اللازمة لتحسين الحال: ومن الوظائف التى يضطلع بها الضمير فى حالة الفرد أو فى حالة المجموعة، توفير الطاقة النفسية اللازمة التى إذا ما بُذلت، عندئذ يتسنى القضاء على أسباب التخلف، والتلحف بأسباب التقدم والارتقاء. فالكسول يَنْفُض عن نفسه غبار الكسل، والمهمل يشمر عن ساعد الجد، والمتواكل يأخذ فى الاعتماد على نفسه لكى يَشُق طريقه إلى النجاح والمجد فى مستقبله القريب والبعيد، والضعيف يتذرع بأسباب القوة، والجاهل يتجه إلى ينابيع الحكمة يرتشف منها، والمهزوم يتصفح

أسباب هزيمته، لكى يقتلعها من جذورها، ويتسلح بأسلحة الانتصار وقهر الأعداء. إلى آخر تلك الوسائل التى تستخدم الطاقة النفسية بفروعها المتباينة، أعنى الطاقة العقلية والطاقة الوجدانية والطاقة الإرادية، فى التجهيز لها واستخدامها بمهارة وإتقان.

خامساً - استشراف المستقبل: أخيراً فإن الضمير الحى، لا يتقوقع فى لفائف ماضى المرء، أو فى لفائف ماضى المجموعة، بل إنه يأخذ فى اعتباره أضلاع الزمان الثلاثة، أعنى الماضى والحاضر والمستقبل. ذلك أن اقتصار الضمير على الأخذ بضلع واحد من هذه الأضلاع الثلاثة، أو على ضلعين فقط منها، وإهمال الضلع الثالث، لا يسمح له بأن يكون ضميراً حياً بمعنى الكلمة. فلكى يكون الضمير يقظاً ومفعماً بالحيوية والنضارة، فلا بد أن تكون لدى صاحبه القدرة على الإفادة من وقائع الماضى من جهة، والقدرة على توظيف إمكانيات الحاضر من جهة ثانية، والقدرة على التخطيط لاستثمار ذخائر وكنوز المستقبل من جهة ثالثة. فالضمير اليقظ يحمل صاحبه على التخطيط للمستقبل قبل وقوعه، لأن التجهيز لما سوف يستجد من ظروف وأحوال، وما يحتمل أن يحمله ذلك المستقبل من إمكانيات، شرط أساسى حتى يتسنى وصفه بأنه ضمير يقظ ومفعم بالحيوية والطاقة المبشرة بالنجاح.

العوائق التي تعترض توظيف الضمير بطريقة جيدة:

وعلينا أن نذكر فيما يلي العوائق التي تحُول دون توظيف الضمير بطريقة جيدة بإزاء المكبوتات اللاشعورية:

أولاً - هيمنة المكبوتات اللاشعورية على الشخصية: فالواقع أن المرء كثيراً ما يكون غارقاً تماماً في لُجّة تلك المكبوتات اللاشعورية، بحيث تكون مسيطرة على مقود شخصيته، وبالتالي فإنه يفرق حتى أذنيه في مهاويها، ولا يستطيع منها فكاًكاً. فيصاب عندئذ بالشلل الإرادي. وبالتالي فإن ضميره لا يستطيع أن يضطلع بجميع الوظائف التي عرضنا لها قبلاً، بل يقتصر على الوظيفة التأنيبية. ويكون شأنه شأن المصاب بالشلل الجسمي الذي ينخرط في أحلام يقظة يدير خلالها مخيلته بصدد ما كان يتمنى الاضطلاع به من أعمال باهرة، لولا ذلك الشلل الذي يُعمق حركته، ويَحُول بينه وبين تحقيق أمانيه، واعتمال إرادته في مجالات الحياة المتباينة.

ثانياً - الجهل بالإمكانات المتاحة: فالواقع أن الضمير إذا ما وجد الطريق المعرفي مسدوداً أمامه فإن صاحبه لا يستطيع أن يقف على الإمكانيات الراهنة المتاحة، أو على الإمكانيات التي سوف تكون متاحة في المستقبل. فضميره مهما كان حياً ويقظاً، فإنه لا يستطيع أن يترسّم ما يمكن أن

يلعبه من أدوار إيجابية فى المستقبل، بل ينحصر كل همه فى تصفُّح ما صدر عنه من أخطاء أو خطايا ، دون التفتُّح على إيجابيات الحياة، وما يمكن أن يقف عليه من أسرار النجاح ، وشق الطريق نحو مستقبل أفضل .

ثالثاً - الارتواء فى حمأة اليأس والقنوط : فلقد لا يستطيع الفرد أو المجموعة التشرُّيل بسرِّبال الأمل فى مستقبل أفضل ، بل يرتميان فى حمأة اليأس والقنوط . وتكون النتيجة هى الانتحار الأدبى، أو الانتحار المادى، أو الانتحار الجسدى . فالطالب الذى يعذبه ضميره لأنه أهمل دروسه فرسب فى الامتحان ، ولكنه يقف عند حد تعذيب نفسه، ولا يؤمل فى العثور على الوسائل التى يتسنى له بها إحلال وسائل النجاح والتفوق محل أسباب الفشل وخيبة الأمل، فإن ضميره فى هذه الحالة ، لا يكون متصفاً بالتكامل والتأزر.

رابعاً - عدم العثور على مفتاح النجاح : فلقد تتوافر جميع المقومات والظروف أمام صاحب الضمير الحى ، كما تتوافر أمامه جميع فرص نقض غبار الفشل ، والتلبُّس بالأمل فى التعويض عما فاته من نجاح ، ولكنه لا يوفق فى العثور على الوسائل الكفيلة بتخليصه من أسباب الفشل ، والتسلُّح بأسباب النجاح ، فتكون النتيجة المترتبة على ذلك ، هى

التوقف عند حدود عقاب الذات ، نتيجة اليأس من إحراز أى تقدم أو نجاح .

خامساً - التذبذب بين الإقدام والإدبار : أخيراً فإن
الضمير قد يتقدم خطوة إلى الأمام ، ثم يتقهقر خطوة إلى الخلف . ويتمبير آخر فإن المرء قد يتشج بالضمير الحى والمتدفق حيوية ، ثم يخبو وينخرط فى نعاس عميق . وبالتالي لا يتسنى له التقدم وإحراز النجاح فى الحياة ، أو التخلص من ضغوط تلك الركامات اللاشعورية الثائرة فى أعماقه ، فيظل على حاله من التوتر النفسى ، والتردى فى سلسلة متصلة من الانحرافات النفسية .

وسائل توظيف الضمير بطريقة فعّالة :

وعلىنا فى نهاية المطاف أن نستعرض الوسائل التى يتسنى بها توظيف الضمير بطريقة فعّالة ومجدية بإزاء الرواسب اللاشعورية .

أولاً - النقد الذاتى : فلا شك أن الوقوف على نقاط الضعف بالشخصية ، هو نقطة البداية فى استكشاف المكبوتات اللاشعورية . فما يتردى فيه المرء من فشل برغم المحاولات التى يبذلها فى سبيل النجاح ، يعتبر شاهداً شبه مؤكّد على أن ثمة رواسب لا شعورية معاكسة أو معوّقة تحول بين المرء وبين إحراز النجاح .

ثانياً - الاستبطان Introspection للوقوف على الخبرات المكبوتة : فمن يتدرَّب على الغوص فى أعماقه ، واستقراء أحواله النفسية ، وذلك بالعكوف على الذات وممارسة الاعتكاف ، فإنه يستطيع أن يكتشف العوامل والظروف والمواقف التى أدت إلى حدوث تلك المكبوتات اللاشعورية فى أعماقه . وبهذه المناسبة فإننا نذكّر بأن الطريق بين اللاشعور والشعور مفتوح ، وأن العلاقة بينهما هى علاقة تضاد ، كالعلاقة بين الغنى والفقر ، أو بين الصحة والمرض ، أو بين القوة والضعف ، أى أن ثمة تدرُّجاً وحالات بَينية كثيرة بين كل طرف من الطرفين المتضادين .

ثالثاً - جلسات التحليل النفسى : فعلى الرغم من أن معظم الناس لا يلجئون إلى الطبيب النفسى ، فإن من الضروري إنعاش الوعي الشعبى بضرورة التخلُّص من المكبوتات اللاشعورية ، أو على الأقل التخفُّف من وطأتها عن طريق جلسات التحليل النفسى . فهذا هو الطريق المُفضى إلى التمتع بالصحة النفسية . والمأمول أن يستيقظ الضمير الشعبى بوعى للانتحاء إلى هذا المنحى العلاجى ، وبخاصة فى الحالات التى تتبدى فيها آثار تلك المكبوتات اللاشعورية فى الانحرافات السلوكية التى يمكن أن تصاب بها الشخصية .



الفصل الخامس

الضمير والقيم الاجتماعية

معنى القيم الاجتماعية وأنواعها :

علينا أن نقوم أولاً بإلقاء الضوء على معنى القيم وأنواعها ، قبل أن نبحث فى العلاقة بينها وبين الضمير ، فنجد أنها تعنى وتتضمن ما يأتى :

أولاً - تحديد معايير معينة للسلوك : فالمجتمع الذى ينشأ فيه الفرد ، بدءاً بأسرته ، ثم بيئة الجيران ، ثم المدرسة بجميع مسمياتها ومستوياتها التعليمية ، ثم الحرفة أو المهنة التى يحترفها أو يمتهن بها ، تحدّد له القواعد السلوكية التى يجب عليه أن يلتزم بها ، ولا يتخطاها . والسلوك لا يتضمن البادى للعيان فى تصرفات ومواقف المرء فحسب ، بل يتضمن أيضاً السلوك الباطنى ، أعنى طريقة التفكير ، والعواطف التى تعتمل بدخيلته ، سواء كانت عواطف حب ووداد ، أم كانت عواطف كراهية ونبذ ، أم كانت إرادة أو طاقة إرادية ، سواء

كانت إرادة إيجابية تتمثل فى الإقدام على أداء سلوكى معين ، أم كانت إرادة سلبية تحوّل بين المرء وبين الإقدام على تصرف ما . والقيم الاجتماعية ، وإن كانت تؤلى اهتمامها الأكبر بالظاهر من السلوك ، فإنها لا تُغفل أيضاً الباطن منه . ومن ثمّ فإنها تهتم بتربية الناشئة بدءاً من دخيلة الفرد ، على أساس أن الظاهر من السلوك ، لا يعدو أن يكون ترجمة لما يعتمل بقوامه الداخلى من فكر وعاطفة وإرادة ، والمجتمع يستند فى قيمه على ما يقرره الدين ، وما ينحو إليه العرف والتقاليد الاجتماعية ، فيحدّد ما هو خير وما هو شر ، وما هو مناسب وما هو غير مناسب ، وما هو مفيد وما هو ضار ، إلى آخر التقييمات التى يحدّد فى ضوئها ما يجب على الناس مراعاته فى سلوكهم .

ثانياً - الاهتمام بالتطوير والتقدّم : ومن القيم الأساسية التى يهتم بها المجتمع ، تطوير الواقع لتقديم نتائج أفضل وبنفقات أقل ، وجعل الأداء فى وقت أقصر ، وأيضاً تطوير التكنولوجيات الموجودة ، واختراع تكنولوجيات جديدة ، تعمل على راحة الإنسان ورفاهه .

ثالثاً - الانتماء وخدمة المؤسسات التى ينتمى إليها المرء : ومن القيم الأساسية التى يهتم بها المجتمع إحساس المرء

بالانتماء إلى المجتمع القومى ، وإلى بعض المجتمعات الفرعية التى يتضمنها ذلك المجتمع القومى ، والانتماء ليس مجرد إحساس بالمعية ، بل هو أيضاً استعداد للبذل والتضحية والعطاء . فالشعور بالنحن يجب أن يتوافر عند المرء ، إلى جانب شعوره بالأنأ . فالمطلوب من المرء أن يعتنى بنفسه كفرد من جهة ، وأن يعتنى بالمؤسسات الاجتماعية التى ينتمى إليها من جهة أخرى . (انظر كتابنا الانتماء وتكامل الشخصية) .

رابعاً - التمييز بين نوعين من القيم : فبعض القيم الاجتماعية تتسم بالإطلاق ، وبعضها الآخر يتسم بالنسبية . وبالنسبة للقيم المطلقة ، فمنها القيم التى تتعلق بالمبادئ الدينية : كالإيمان بالله ويوم الحساب ، وقيمة الاستقامة والشرف . أما بالنسبة للقيم النسبية ، فمنها التذوقات الجمالية التى تختلف من شخص لآخر ، ومن جماعة إلى جماعة أخرى .

خامساً - ضرورة ملائمة القيم لظروف المرء أو المجموعة : فبعض القيم التى تناسب الطفل ، قد لا تناسب الشاب . والقيم التى تناسب الشاب ، قد لا تناسب الكهل ، والقيم التى تناسب الكهل قد لا تناسب الشيخ . والقيم التى تناسب الذكور قد لا تناسب الإناث . والقيم التى تناسب القرويين ،

قد لا تناسب أهل المدن . والقيم التى تناسب العلمانيين ، قد لا تناسب رجال الدين ، إلى آخر الفئات التى يمكن أن ينتمى إليها المرء . فالمهم أن يلتزم المرء بالقيم التى تناسب وضعه وظروفه الاجتماعية .

الأدوار التى يلعبها الضمير بإزاء القيم الاجتماعية :

وبعد أن قدمنا هذه الأنواع الخمسة من القيم ، فإن علينا أن نلقى الضوء على الأدوار التى يلعبها الضمير بإزاء القيم الاجتماعية فنجد أن هذه الأدوار يمكن أن تتحدد فيما يلى :

أولاً - الضمير الفردى يتكامل مع الضمير الجمعى ،
 فالواقع أن الضمير الفردى ، بمثابة انعكاس أو صدى للضمير الجمعى . ولكن الفرد لا ينتمى إلى مجتمع فرعى واحد ، بل ينتمى إلى مجتمعات فرعية كثيرة . ومن هنا فإن ضميره الفردى ، يعتبر محصلة تتشكّل من جميع تلك المجتمعات الفرعية التى ينتمى إليها ، ويتفاعل معها . وكلما كان الفرد متمتعاً بمجموعة كبيرة من الانتماءات لمجتمعات فرعية كثيرة ، كان ضميره أكثر قوة ، وكانت محصلته الضميرية - إذا صح التعبير - أكثر خصوبة وفتحاً . أما الشخص الذى تنكش انتماءاته فى نطاق مجتمع فرعى واحد أو مجتمعين فرعيين

فحسب ، فإن ضميره الفردى يكون متقوقعا فى نطاق الضمير الخاص بذلك المجتمع الواحد ، أو فى نطاق الضميرين الخاصين بالمجتمعين الفرعيين اللذين ينتمى إليهما .

ثانياً - الضمير الفردى مستمر فى التطور : فكلما كان الفرد أكثر مرونة وتطوراً ، بحيث يلائم بين آخر مستوى انتمائى بلفه ، وما يحدث من تطورات وتغييرات فى نطاق المجتمعات الفرعية التى ينتسب إليها وينتمى إليها ، فإنه يكون مستمراً ودائباً على التطور بضميره الفردى . وبالمناسبة فإننا نود أن نقول إن الضمير ليس شيئاً كالقلب والرئتين والرأس ، بل هو عبارة عن سلسلة من العمليات التى يضطلع بها المرء شعورياً ولا شعورياً ، وتعبير آخر فإنه يبنى مشاعره وتوجهاته التى يضطلع بها بوعى وشعور ، على خلفية من المقومات اللاشعورية المعتملة فى قوامه النفسى . ولكن لا يعنى هذا أن الفرد يكون كالحرياء التى تتلون مع ما يحيط بها من ألوان ، بل إنه مع تطور ضميره ، فإن ثمة ثوابت ، أو قل إن هناك مقومات ضميرية أكثر تطوراً من باقى المقومات الضميرية الأخرى . فبينما يكون التطور الذى تتحى إليه بعض مقوماته الضميرية سريعاً ، فإن التطور الذى تتحى إليه بعض مقوماته الأخرى يكون بطيئاً ، أو لقد تكون بعض المقومات الضميرية غير قابلة للتطور على الإطلاق . فالقيم

التي يؤمن بها الفرد فيما يتعلق بالخير والشر ، قد تظل كما هي دون أن يعتريها أى تطور . ولكن هذا لا ينسحب بإزاء جميع الأشخاص . فثمة فروق فردية تتبدى من شخص لآخر بإزاء التطورات الضميرية .

ثالثاً - الأحداث المؤلمة أو المفرحة وتأثيرها فى القيم :
 فالواقع أن بعض الأحداث المؤلمة أو المفرحة ، والتي يكون لها أثر فى شخصية المرء ، قد تتوأكب معها تطورات عميقة فى الشخصية . فقد يُسقط المرء بعض قيمه التي كان يعتز بها ، من ذلك مثلاً الموظف الذى كان يعانى من ضيق ذات اليد ، وقد رقى إلى منصب حساس . فيُقبل عليه أصحاب المصالح يعرضون عليه الرشاوى . فهو قد تنهار لديه قيمة الأمانة ، ويضعف ضميره فى المقاومة فيقبل الرشاوى ، طمعاً فى أن يخرج من فئة المضعفون بين فكي الغلاء ، والارتفاع إلى مستوى الموسرين . فذلك الموظف كان بين أمرين : إما أن يستولى الدائنون على عفش شقيقته ويبيعوه فى المزاد ، وذلك إذا أصر على أن يتمسك بمبدأ الشرف والأمانة ، حتى ولو تطلب ذلك تعرضه للهزء والسخرية من جيرانه وأقربائه ومعارفه ، عندما يشاهدون عفشه يباع فى المزاد ، وإما أن يغير جلده ، ويُعدّل فى موقف وسياسة ضميره ، الذى كان يرفض أخذ أى رشوة من أى شخص .

رابعاً - تأثير الانتقال إلى مجتمع جديد : فالواقع أن المجتمعات القومية تتباين فيما بينها من مجتمع قومي إلى مجتمع قومي آخر ، فالمصري الذي هاجر إلى أمريكا أو إلى استراليا ، يجد نفسه بعد الإقامة في المجهر قد تطور بضميره ، ولم يعد يعاير الأمور بالمعايير نفسها التي كان يعايرها بها قبل انتقاله إلى المجتمع الجديد الذي تسود عليه معايير وقيم مبابنة كثيراً أو قليلاً عن المعايير والقيم التي تشيع في وطنه الأصلي .

خامساً - تأثير الثقافة والتفتح : فكما اتسعت ثقافة المرء ، وذلك بزيادة معارفه والتعمق فيها ، وكذا باكتساب المهارات الحركية والاجتماعية ، بالإضافة إلى التذوقات الدينية والأخلاقية والجمالية ، فإنه يكون أكثر قابلية للتطور الضميري ، والتطور الضميري الذي نعنيه ، قد يكون للخير كما قد يكون للشر . فلقد يتطور ضمير الشخص المثقف بحيث يتسع فكره لفتوحات ثقافية مفيدة له ولن يتعامل معهم ، كما أنه قد يستثمر ثقافته للإضرار بالآخرين ، وخداعهم ، واستغلالهم ، أو الانحدار بهم إلى مهاوى الرذيلة .

أسباب الهبوط بالمعايير الضميرية بإزاء القيم الاجتماعية :

وعلينا أن نقوم في نهاية المطاف باستعراض العوامل التي قد تعمل على الهبوط بمستوى المعايير الضميرية بإزاء

القيم الاجتماعية ، فنجد أن هذه العوامل يمكن أن تتحدد على النحو التالي :

أولاً - الرغبة في التكيف للمجتمع : فالكثير من الأشخاص الذين ينحدرون بضمائرهم إلى أسفل سافلين ، إنما يكون السبب في انحدارهم ، وهبوطهم عن المستوى الضميرى الذى كانوا يتمتعون به ، هو رغبتهم فى التكيف للواقع الاجتماعى السيئ الذى انحدر إليه المجتمع الذى يحيون فى نطاقه ، ويتعاملون مع أفرادهم . خذ مثلاً لذلك الشخص الذى كان ينهج تبعاً لضميره الحى فى الذود عن المظلوم ومناصرتة ، والذى كان يتبع مبدأ التضحية من أجل المُعوزين . إنه بعد أن لاحظ أنه موضع تهكم من جانب من يحيطون به فى مجتمع لا يؤمن إلا بالمصلحة الشخصية ، ويتنكر للتضحية ، وبعد أن لاحظ أن الأشخاص الذين دافع عنهم عندما شعر بأنهم كانوا مظلومين فى بعض المواقف والقضايا ، والأشخاص الذين كانوا محتاجين إلى مساعدته ، فسخر عليهم بماله ، قد صاروا يُبدون له العدا ، ويطالبونه بالمزيد من عطائه ، وإلا فإنهم سوف يناصبونه العدا ، فما كان منه إلا أن فقد مبدأ كان يلتزم به ، ويعتز به ، ولم يعد ضميره يعذبه إذا لم يساعد من يحتاج إلى مساعدته ، أو نُصرتة ضد من يظلمونه .

ثانياً - مغريات الحضارة : فالواقع أن الحضارة مفعمة بالمغريات الكثيرة التي قد تعمل على ميل كثير من أصحاب الضمائر الحساسة والحية ، إلى التنازل عن الكثير من مبادئهم السامية ، والجرى وراء بهرج الحضارة رمفرياتها . فالذى يعيش على الكفاف ، يرغب فى أن يكون مستوراً ، والمستور يرغب فى أن يتمتع بما يتمتع به الأغنياء . والفنى يرغب فى أن يصير من أصحاب الملايين . وصاحب الملايين يرغب فى أن يصير من أهل القمة الاقتصادية . وبتعبير آخر فإن مغريات الحضارة تعمل على لى رقاب كثير من الشرفاء ، وحملهم على التنازل عن المبادئ التي كانوا يتمسكون بها . وبتعبير آخر فإن الكثير من أصحاب المبادئ السامية ، صاروا يتذرعون بأى وسيلة يمكن أن تحقق لهم التمتع بما تزخر به الحضارة من مغريات.

ثالثاً - الرغبة فى الشهرة : فالكثير من أصحاب المبادئ والضمائر الحية ، قد أصفوا إلى نصائح بعض الخبثاء ، بأن من يرغب فى أن يطفو على السطح ، وأن يكون من بين من يشار إليهم بالبنان ، فإن عليه أن يطأطئ الرأس ، وأن يستعين بالوسائل التي تسمح له بأن ينخرط فى صفوف المشهورين . فالطريق إلى ذبوع الصيت له ثمن يجب أن يدفع ، قد يكون الرشاوى أو الهدايا ، أو قد يتمثل فى تقديم الخدمات وتبادلها

مع من بيدهم الحل والربيط فى رفع اسم ذلك المغمور ، إلى أعلى عليين ، ودرّج اسمه بين أسماء العباقرة الأفذاذ ، وعلى هذا فإن صاحب المبدأ يأخذ بالنصيحة الدنيئة ، حتى يحظى بالشهرة ، سواء نجح فى التوصل إليها بالفعل ، أم ظل فى الظل بعيداً عن الأضواء .

رابعاً - الإغراءات الجنسية : ومن العوامل التى قد تعمل على الهبوط بمستوى ضمير المرء ، خضوعه للإغراءات الجنسية . فالفاتنات قد لعبن ، وما يزلن يلعبن ، وسوف يستمر تأثيرهن عميقاً فى قلوب الرجال . بيد أن الرجال يختلفون بعضهم عن بعض بإزاء الإغراءات الجنسية . فمنهم من يتنازلون عن مبادئهم ، ويخالفون ضمائرهم ، ويخونون من وثقوا فيهم من كبار المسؤولين بالدولة ، وقد منحوهم سلطات كبيرة . فالفضائح التى تنشر على الملأ خاصة بالاستمالات التى قامت بها بعض الفاتنات لبعض المسؤولين فى المناصب الحساسة معروفة ، وتنشر من وقت لآخر على صفحات الجرائد والمجلات .

* * *

الفصل السادس

الضمير بين صلابة المبدأ و مرونة الواقع

الإطلاقيون والنسبيون

ينقسم الناس جميعاً عبّر المكان والزمان ، إلى فئتين لا ثالثة لهما : فئة الإطلاقيين ، وفئة النسبيين . والإطلاقيون يتناولون حياتهم من زاوية الحق والباطل ، أى أنهم تيدرّعون بالمبادئ الإطلاقيه التى لا تعرف التوسط . فالخير خير والشر شر ، ولا توجد حالات بينية فيما بين الخير والشر . وبفض النظر عن النتائج التى تتأتى عن الاستمسك بالمبدأ الأخلاقى المطلق ، فإن من الواجب حسب معتقد هذه الفئة الإطلاقيه ، أن على المرء أن ينحاز انحيازاً تاماً وبشكل غير منقوص إلى الخير ، كما عليه أن ينبذ الشر نبذاً تاماً وبلا هوادة . فكما أن $1 + 1 = 2$ ولا إجابة أخرى صحيحة غير ٢ ، كذا فإن الخير واحد ومُطلق . فمثلاً بالنسبة للصدق والكذب ، فإن الكلام إما أن يكون مُتصفاً بالصدق ، وإما أن يكون مُتصفاً

بالكذب ، ولا يوجد صدق سلوكى ، أو كذب أبيض . فالصدق خير فى كل مكان وفى كل زمان ، والكذب شر فى كل مكان وفى كل زمان . ويجب الإغضاء عن النتائج الضارة التى يمكن أن تترتب على قول الصدق ، سواء كانت الأضرار منصبّة على المتكلم نفسه ، أم على غيره . ويغض النظر عن المكاسب التى يمكن أن تترتّب على قول الكذب . سواء كانت تلك المكاسب راجعة إلى المتكلم نفسه أم إلى غيره .

أما هذه النسبيين ، فإنهم يتخذون موقفاً معارضاً معارضة تامة لموقف الإطلاقيين . فهم يعتبرون أن السلوك ، بما فيه السلوك التعبيرى المُفصّل عن الأفكار أو المعانى أو الرغبات أو الإرادات ، لا يعدو أن يكون وسيلة أو أداة ، يجب استخدامها بمهارة وبطريقة ملائمة لكل موقف يوجد به المرء ، بقصد التوصل إلى أحسن النتائج الممكنة . فالمقصود بالسلوك الذى يصدر عن الفرد ، هو التماثل بنجاح مع الواقع الاجتماعى . أما أن يسجن المرء نفسه فى نطاق بعض المبادئ ، ويُخضع نفسه لها ، وفى الوقت نفسه يعمى عن الواقع الخارجى ، وما يؤدى إليه كلامه من أضرار أو إلى سوء علاقات مع الناس من حوله ، أو إلى ثلم لمشاعرهم أو إلى تشييط همهم ، فإنه يكون قد فشل فى استخدام الوسيلة أو الأداة الكلامية التعبيرية .

وواضح - كما يقول النسبيون - أن المتمسك بالمبادئ دون أن يأخذ النتائج التي يمكن أن تترتب على الاستمساك بتلك المبادئ في اعتباره ، إنما هو شخص ينحو إلى الثبوتية السلوكية . فهو لا يسمح لشخصيته بالنمو والتطور ، ولا يهيئ لها المناخ المناسب لتحقيق التوافق مع مقتضيات الأحوال ، والتماشي مع إيقاع التدفقات الاجتماعية والحضارية التي يمر بها المجتمع ، أو يتقدم نحوها . فهو شخص يظل قابلاً بعيداً عن مجريات الأمور ، وعما تؤول إليه التطورات الاجتماعية والحضارية . وطالما أن الكلام عبارة عن عمليات اتصال بين المرء وبين الآخرين ، وطالما أن الناس من حوله يتطورون تمشياً مع التطورات الاجتماعية ، التي لا تقف عند حد لا تتقدم بعده ، فإن الثبوتى أو الشخص الذى يتمسك بالمبادئ الجامدة وقد أغمض عينيه وعقله وقلبه عن الواقع المتطور ، لا يستطيع أن يحقق نجاحاً فى حياته ، وذلك لأنه متخلف عن الركب الاجتماعى ، وقابع فى قمقم المبادئ المطلقة .

وواضح من عرضنا السريع للاتجاهين الأساسيين فيما يتعلق بالصدق والكذب ، أن جميع أنحاء السلوك تخضع إما للإطلاق وإما للنسبية ، فالشخص الذى يتمسك بالمبادئ المطلقة ، إما أن يعتقد أنه نقيّ نقاءً تاماً ، وكاملاً بشكل مطلق ، وإما أن يعتقد أنه ملوثٌ بالشُرور ، بغض النظر عن كمية الشر

التي لصقت بشخصيته . فالبقعة الواحدة تلوث الرداء كله ، والخطأ أو الخطيئة الواحدة ، تهبط به حسب منطق معتقده الإطلاقي ، من أعلى عليين إلى أسفل سافلين . فمن يخطئ أى خطأ ولو كان خطأ تافهاً ، وحتى عن سهو من جانبه ، فقد صار شريراً . فالإطلاق لا يشمل الكلام فحسب، بل يشمل كل مناحي السلوك .

مبدأ المحاولة والخطأ :

ولكن الشخص النسبي ، لا يقول بذلك ، بل يعتقد أن مبدأ المحاولة والخطأ ، والتحسين التدريجي النسبي ، هو الخلق بالاعتبار . فأفضل الفضلاء لا يستطيع أن يكون سلوكه نقياً نقاءً تاماً ، وخالياً من أى عيب ، والشأن هنا كالشأن بالنسبة للصحة . فأصح الأصحاء تكون صحته مشوبة ببعض الانحراف عن الصحة المطلقة . والشأن هنا أيضاً كالشأن بالنسبة للعلم . فأعلم العلماء يجهل بعض الأمور . وشأنه كشأن الغنى . فأغنى الأغنياء ، يجد من هو أغنى منه ، أو أن الطريق إلى زيادة ثروته يظل مفتوحاً أمامه باستمرار ، وليست هناك نهاية تقف عندها ثروته المتضخمة .

ما ينافح به صاحب الضمير الإطلاقي عن موقفه :

وصاحب الضمير الإطلاقي ينافح عن موقفه المبدئي بمجموعة من البراهين التي نقدمها فيما يلي :

أولاً - الحماس لبلوغ الكمال : إن من يطلب الكمال لا يبلغه تماماً ، ولكنه يقترب من فحسب . فلكي يتسنى للمرء أن يقترب من الكمال ، يجب أن يترسم مثلاً أعلى كاملاً ، وليس مثلاً أعلى به بعض العيوب أو النقائص . أما من يأخذ بالمنهج النسبي ، فإنه لا يترسم مثلاً أعلى ، بل يُفصل سلوكه على مقاس مقتضيات الواقع . فهو إذن كالحرياء التي تتلون بما يحيط بها من ألوان ، وتحصر نفسها في الواقع الراهن ، دون أن تتطلع إلى المستقبل المأمول .

ثانياً - الشعور بالنقص حافز على التقدم المستمر : فالواقع أن شعور المرء بأنه ، لم يبلغ الكمال ، وأن أمامه شوطاً بعيد المدى ، لكي يقترب منه ، إنما يشكّل حافزاً سلوكياً لديه ، يدفع به إلى الأمام بالمحاولات الدائبة للتخلص من الأخطاء السلوكية التي شابت شخصيته ، ولاكتساب الصفات الجيدة التي تؤهله للتقدم في مسار الفضائل وانتهاج السلوك الخالي من الشوائب نسبياً .

ثالثاً - ليس هناك معيار نسبي محدد : فمن يأخذ بالنسبية فإنه يتناول الواقع الراهن ، ولا يتأمل مثلاً أعلى مطلقاً يحاول الاقتراب منه ، أو الأخذ عنه . فالنسبيون يرضون عن واقعهم ، ويكتفون بما هم عليه من مستويات

سلوكية. وبذا فإنهم محرومون من اقتفاء أثر مثل عليا سلوكية، يحاولون الاقتداء بها ، والاقتراب من مستواها ، أما الإطلاقيون فإنهم لا يرضون عن واقعهم السلوكي ، ويجدون أمامهم المثل الأعلى الخلق بالاقترفاء والتأسي به .

رابعاً - تصفح ما أنجز بالفعل وما يجب إنجازه مستقبلاً ، فمادام هناك مثل أعلى يرجى بلوغه أو التأسي بسلوكه ، فإن الشخص الإطلاقي ، يعمد إلى مقارنة سلوكه بسلوك ذلك المثل الأعلى الإطلاقي ، ثم يقارن ما قطعه في طريق الكمال ، بما يجب عليه أن يقطعه في مشواره نحو بلوغ ذلك المستوى الأخلاقي الإطلاقي .

خامساً - عدم خلط الحابل بالنابل : فبالنسبة للشخص الذي يأخذ بالنسبية ، فإنه يخلط الأخيار بالأشرار ، أو بتعبير آخر فإن جميع الناس في نظره أخيار ، كما أن جميع الناس في نظره أشرار . ولكن بالنسبة للإطلاقيين ، فإن الناس ينقسمون إلى فئتين لا ثالثة لهما ، هما فئة الأخيار من جهة ، وفئة الأشرار من جهة أخرى . والواقع أن البشرية منذ القدم وهى تأخذ بالثنائية في تقييم الناس ، بل إنها تأخذ بالثنائية في جميع تقييماتها ، فنقول هناك نهار وليل ، ونغض النظر عن الحالات البينية الواقعة فيما بينهما . ونقول أسود

وأبيض، ونغض النظر عن الألوان التى تقع بين السواد والبياض . وكذا فإننا نقول الشيء نفسه عن الصحة والمرض ، وعن القوة والضعف ، وعن جميع الثنائيات ، غاضين النظر عن الحالات التى تقع بين طرفى كل ثنائية من الثنائيات التى نعرض لها بالحديث أو بالتفكير أو بالتقييم .

ما ينافح به صاحب الضمير النسبى عن موقفه :

بيد أن الشخص صاحب الضمير النسبى لا يسكت أو يقتنع بما ذكره صاحب الضمير المطلق ، بل يدلى هو الآخر بحججه لدعم موقفه النسبى فيذكر الحجج التالية :

٤ أولاً - التفاؤل بدلاً من التشاؤم : فصاحب الضمير النسبى، يتهم صاحب الضمير المطلق بأنه شخصية متشائمة. فهو دائب على الشعور بالنقص . فمهما أحرز من تقدم فى طريق الفضيلة، فإنه يحس فى قرارة نفسه بنقائصه وأخطائه. أما صاحب الضمير النسبى، فإنه يحس بأن الحياة كلها محاولات وأخطاء ، وأن التدريب وليس التعليم ، هو الطريق العملى والناجح فى تنشئة الصغار ، وفى تقويم سلوك الكبار. فكما أن من يرغب فى التدريب على العوم ، لابد أن يأتى فى محاولاته الأولى بحركات عشوائية خاطئة فى أثناء تدريبه ، ثم يأخذ فى التخلص منها شيئاً فشيئاً ، ويحل محلها حركات

سليمة ، كذا الحال بالنسبة لصاحب الضمير النسبى . إنه يعترف بوجود أخطاء فى سلوكه ، ولكن مع الانتظام على التدريبات السلوكية ، فإنه يتفاعل بإمكان التخلص منها ، وإحلال ما هو صواب وجيد وسوى محلها .

ثانياً - التشبث بالواقع وليس بالخيال : ففى رأى صاحب الضمير النسبى ، أن طريقة تناول السلوك من زاوية واقعية ، هو الخلق بالاتباع ، أما المنهج المطلق ، فإنه منهج خيالى . فالشخص الإطلاقى يدير خياله فى الفضائل الإطلاقيه ، ولكنه حتى إذا هو تحمس لتحقيقها فى قوام شخصيته ، فإنه لا يستطيع أن يتقدم خطوة واحدة إلى الأمام . فثمة فرق جوهري بين الفكر والخيال والحماس الأجوف للتخلص من الأخطاء والخطايا من جهة ، وبين الممارسة العملية والتدريبات السلوكية الواقعية التى تتناول الأداء والإرادة من جهة أخرى . فبدءاً بالإرادة وليس بالفكر والأمانى والحماس ، يتحقق التقدم فى مسيرة السلوك . فحكم من متحمس يرغب فى أن يكون فاضلاً ولكنه لا يدرّب نفسه على الأداء السلوكى الفاضل ، فلا يبوء إلا بالفشل فى مسيرته الأخلاقية !

ثالثاً - الفروق الفردية والفروق الجماعية : وصاحب الضمير النسبى يؤكد أن ثمة فروقاً فردية بعيدة المدى من

جهة ، وفروقاً أخرى اجتماعية بعيدة المدى أيضاً تتبدى بين المجتمعات المختلفة من جهة أخرى ، تحتم علينا ألا نصب الأفراد والجماعات جميعاً فى قوالب سلوكية معدة لهم من قبل ، دون أن نأخذ فى اعتبارنا تلك الفروق الفردية والفروق الجماعية فى الاعتبار . فما يصلح أو يناسب شخصاً ما ، قد لا يناسب شخصاً آخر . وما يناسب مجتمعاً ما ، قد لا يناسب مجتمعاً آخر . وأكثر من هذا ، فإن ما يناسب الشخص الواحد فى مرحلة عمرية معينة وفى ظل ظروف معينة ، قد لا يناسبه فى مرحلة عمرية تالية أو فى ظل ظروف معينة أخرى . وما يناسب مجتمعاً ما ، فى ظل ظروف معينة ، قد لا يناسبه بعد تغير تلك الظروف ، واكتنافه بظروف أخرى مغايرة . وعلى هذا فإن صاحب الضمير النسبى ينمى على صاحب الضمير المطلق ، لأنه يحاول صب الناس جميعاً والمجتمعات جميعاً فى قالب سلوكى واحد ، أو إجبارهم على التأسّى بمثل أعلى واحد ، هو ذلك المثل الأعلى المطلق ، الذى يتأبى عن الهبوط إلى أرض الواقع ، بل يظل معلقاً فى فراغ ، بعيداً عن متناول الناس ، وعن قدراتهم الأخلاقية ، فيظل بعيداً عنهم ، مهما حاولوا الاقتراب منه . فكلما اقتربوا منه قليلاً ، بُعد عن متناولهم كثيراً . فيظلون مدعوسين بالنقص والخطأ ، ويظل هو أعلى وأسمى من أن يدركوه ، أو حتى الاقتراب منه .

رابعاً - السلوك الفردى صدى للسلوك الجمعى : فبينما يعتقد صاحب الضمير الإطلاقى أنه بفرديته قيّم على المجتمع، بل إنه يكون فى كثير من الأحيان والمواقف ، متّخذاً موقف المتناذب مع المجتمع الذى نشأ به ورعاه ورباه ويحميه من الأخطار ، فإن صاحب الضمير النسبى ، يعترف بأنه عبارة عن صدى للمجتمع ، أو أنه إفراز من إفرازاته . فكلما كان الفرد باراً بأبيه المجتمع ، ومتلاحماً معه ، ومتطوراً بشخصيته مع التطورات التى تحدث فى قوامه ، فإنه يكون بذلك فاضلاً . ولكن المجتمع القومى يضم فى رحابه مجتمعات فرعية كثيرة . فعلى المرء إذن أن يختار من بين تلك المجتمعات ، أكثرها انسجاماً مع استعداداته وميوله ومواهبه ، ويجعل منه رائداً ومرشداً له فى حياته ، فينسجم معه ، ويتطور مع التطورات التى تحدث فى قوامه .

خامساً - التفاعلات المستمرة بين الفرد والمجتمع: بيد أن ما قلناه فى البند السابق، لا يعنى أن الفرد لا يكون باستمرار سوى صدى للمجتمع أو للمجتمعات الفردية التى ينتمى إليها فى المجتمع القومى . فالواقع أن هناك تفاعلات تبادلية بين الأفراد ومجتمعاتهم الفرعية التى ينتمون إليها . ولكن ليس جميع الأفراد على المستوى نفسه من القدرة على التأثير فى تلك المجتمعات الفرعية ، بل هناك أفراد نُبهاء مؤثرون من

جهة، وهناك أفراد هامشيون لا همَّ لهم سوى التوافق مع
الموجود والمحيط بهم ، والذي لفَّهم في لفائفه من جهة أخرى .
إذن فالمسألة نسبية وتختلف من فرد لآخر . فصاحب الضمير
النسبي يؤكد أن ضميره في جدِّته ونضارته ، يكون متمشياً
مع ما أهَّل به من استعدادات وقدرات ومواهب يتسنى له
التأثير بواسطتها في المجتمعات الفرعية التي ينتمى إليها ، أو
لقد يسعده الحظ ، فيكون تأثيره شاملاً لمجتمعه القومى كله ،
بل وقد يتخطاه إلى مجتمعات قومية أخرى أيضاً .

* * *

الفصل السابع

الضمير والميل للانتحار

غريزة البقاء وغريزة الموت:

هناك غريزتان متضادتان تعتملان في قوام الإنسان، هما غريزة البقاء، وغريزة الموت. ولدى الشخصيات السوية، وفي الحالات الطبيعية، التي توفر للمرء التمتع بالصحة النفسية الجيدة، فإن غريزة البقاء، تكون لها الغلبة على غريزة الموت. ولكن هذا لا يعنى أن غريزة الموت تختفى في هذه الحالة تماماً من قوامه النفسى، بل يعنى أنها تظل مقهورة، ومنتحية جانباً تختفى فيه، إلى أن تحين لها الفرصة للبروز على مسرح سلوك المرء. ومن أهم الفرص التي يمكن أن تتاح لغريزة الموت للبروز والإطلال برأسها، أو حتى لسيطرتها وقهرها لغريزة الحياة، سيطرة الميل لدى المرء إلى الانتحار.

هناك أنواع مختلفة من الانتحار:

وهناك في الواقع أنواع متباينة من الانتحار، لعلنا نقوم

باستعراضها فيما يلى، قبل أن نحاول الكشف عن موقف الضمير منه. والأنواع هى:

أولاً - الانتحار البيولوجى: وهو ما يَرد إلى الأذهان عندما يذكر الانتحار من خلال الألسنة والأقلام. فالشخص المنتحر بيولوجياً، يُقدم على إنهاء حياته بيديه، بطريقة أو بأخرى، فلا يظل على قيد الحياة. فبدلاً من انتظار الموت حتى يهبط عليه، فيقضى نحبه، فإنه يسارع نحوه، ويرتمى فى أحضانه، ويُنهى حياته بإرادته، وبوعى من جانبه، مفضلاً الموت على الاستمرار على قيد الحياة.

ثانياً - الانتحار الاقتصادى: وهذا النوع من الانتحار، يتمثل فى إقدام المرء على مصدر رزقه، فيفسده بيده. فالتاجر الذى ينتحر اقتصادياً، قد يشعل النار فى متجره. والموظف الذى ينتحر اقتصادياً، قد يقدم استقالته من وظيفته، دون أن يكون قد عثر على عمل آخر يرتزق منه، أو على وظيفة أخرى يلتحق بها.

ثالثاً - الانتحار الأسرى: فالزوج الذى يطلق زوجته فى لحظة غضب وهياج، يكون بهذا التصرف الانفعالى الأهوج، قد انتحر أسرياً، وذلك لأنه بعد طلاق زوجته يترك البيت، ويتسكح على المقاهى أو الفنادق، أو حتى لقد ييسيت على

الرصيف. وكذا فإن الزوجة التى تهرب مع عشيقها تاركة زوجها وأولادها، تكون قد انتحرت أسرياً.

رابعاً - الانتحار الأخلاقى: فالطالب الذى يرسب فى الامتحان، ويفشل فى دراسته، ولكنه بدلاً من أن يبحث عن أسباب فشله، ويشق طريقه من جديد ولو بتغيير نوع الدراسة، أو بالالتحاق بعمل حر، أو حتى بالهجرة أو العمل فى قطر عربى، فإنه يأخذ فى تعاطى المخدرات أو معاورة الخمر، فيكون بهذا قد انتحر أخلاقياً.

خامساً - الانتحار السياسى: فرجل السياسة الذى يحتل مكانة رفيعة فى الأوساط السياسية، وإذ برجال المخابرات يضبطونه، وهو يخطط أو يتآمر مع دولة أجنبية لقلب نظام الحكم، فيقبضون عليه ويسوقونه إلى المحاكمة العسكرية، إنما يكون بفعلته الشائنة، وخيانتته لوطنه، قد انتحر سياسياً.

علاقة الضمير بالانتحار:

وبعد أن استعرضنا هذه الأنواع الخمسة من الانتحار، فإن علينا أن نلقى الضوء على علاقة الضمير بالانتحار، فنجد أن هذه العلاقة تتمثل فيما يلى:

أولاً - الحكم بالإعدام: فالضمير كالقاضى الذى يُصدر حكمه على بعض المتهمين بالإعدام، ولكن الضمير القاضى،

يختار الطريقة التي يتم الإعدام بواسطتها. فهو قد يصدر الحكم بالإعدام الانتحاري عن طريق الانتحار البيولوجي، أو عن طريق الانتحار الاقتصادي، أو عن طريق الانتحار الأسري، أو عن طريق الانتحار الأخلاقي، أو عن طريق الانتحار السياسي.

ثانياً - التهديد بالإعدام: ولكن الضمير قد يتخذ موقف المهدّد أو المحذّر من مغبة الاندفاع في الطرق الوعرة، أو الطرق المسدودة، أو الطرق التي وضعت بها الألغام. فهو لا يُصدر حكماً بالإعدام، بل يهدّد فحسب، بأن المرء الذي لا يرعوى، ولا يأخذ حذره من الانحدار إلى الهاوى التي لا مخرج منها، فإن جزاءه سوف يكون الحكم عليه بالإعدام الانتحاري. وقد يلقى هذا التهديد بالإعدام الانتحاري استجابة من جانب من يوجّه إليه، فينتحى إلى الوسائل التي تصلح من أحواله، ولكنه قد يسد أذنيه، فلا يرعوى، ويكون مصيره هو الإعدام الانتحاري الذي يصدره عليه ضميره، وقد يئس منه ومن عدم فاعلية تهديداته التحذيرية في قوامه السلوكي.

ثالثاً - الانتقام قبل الانتحار: فلقد ينحو الضمير إلى تأليب المرء على المتسببين في الموقف الحرج الذي انتهى إليه، أو على من سدوا أمامه أبواب الرجاء، ويحضه على أن ينتقم

منهم، فهو لا يقتصر على إصدار الحكم بالإعدام الانتحاري على صاحبه الذي يعتمل في قوامه النفسى، بل يحكم أيضاً على المتسببين في ذلك الإعدام الانتحاري. فقبل أن يُقدم الشخص على الانتحار البيولوجى، فإنه يقتل شخصاً أو أكثر من المتسببين فيما انتهى إليه حاله، وحمله على الإقدام على الانتحار البيولوجى، أو على الانتحار الاقتصادى، أو على الانتحار الأسرى، أو على الانتحار الأخلاقى، أو على الانتحار السياسى. وقد يكون الانتقام الذى يدبر له ضمير المرء المُقدم على الانتحار، من نوع الانتحار الذى يُقدم عليه، فيكون انتقاماً اقتصادياً أو أسرياً، أو أخلاقياً، أو سياسياً.

رابعاً - النصح بالتعقل وتأجيل الانتحار: فلقد يتخذ ضمير المرء الموقف الحكيم، ويأخذ في توجيه النصح إلى المرء، حتى يتدارس الموقف بعناية، فإذا هو اتبع النصيحة، فالأغلب أنه سوف يكتشف أكثر من حل لمشكلاته التى تدفع به إلى التفكير فى الانتحار، فيتخلص بذلك مما ران عليه من يأس، ويتجلبب بجلباب الرجاء فى مستقبل أفضل من حاضره وماضيه جميعاً.

خامساً - النصح بتلقى المشورة من أصحاب الخبرة المخلصين: ولقد يعمد ضمير المرء إلى تبصيره بضرورة اللجوء إلى أصحاب المشورة الصالحة والحكيمة، فلسوف يجد لديهم

الحلول الناجمة لمشكلاته، أو قد يوفرُوا له الوسائل العملية التى يتسنى بها الخروج من المأزق الذى ارتمى فى حمأته. ويكون الضمير فى هذه الحالة هادياً للمرء الذى يميل إلى الانتحار، فيتنحى عن هذا الميل الانتحارى، ويتلبس بميل إيجابى، ويتخذ الخطوات التى تجعل حياته مبشرة بالخير، فيُقْلَع تماماً عن فكرة الانتحار.

الأسباب التى تؤدى إلى شلل الضمير:

ولكن ضمير المرء قد يصاب بالشلل، فلا يستطيع أن يقوم بتوجيهه، سواء إلى طريق الخير أم إلى طريق الشر، وتكون هناك مجموعة من الأسباب التى تؤدى إلى إصابة الضمير بالشلل، لعلنا نقوم بتقديمها على النحو التالى:

أولاً - العجز عن التفكير: فلقد يصاب المرء صاحب المشكلات المستعصية بالعجز التام عن التفكير فى مشكلاته. فهو يجد لديه ميلاً إلى الانتحار، ولكنه لا يقف على أسباب ذلك الميل الانتحارى. فلقد يكون قد فقد ذاكرته، فينسى ماضيه، بل لقد ينسى المهنة أو الحرفة التى يشتغل بها، كما قد ينسى أسماء أقربائه وأصدقائه وأعدائه وكل من اعتاد على التعامل معهم قبل إصابته بالعجز الذهنى. وبالتالي فإنه لا يذكر شيئاً عن المأزق الذى ينحو به إلى الميل إلى الانتحار. فهو يحس به وجدانياً، ولكنه لا يقف عليه عقلاً.

ثانياً - البلادة الوجدانية الانفعالية: ومن أسباب إصابة الضمير بالشلل، تلك البلادة الوجدانية الانفعالية التي تجعل المرء عاجزاً عن أن يستثار عاطفياً أو انفعالياً. فهو يكون فى موقف من لا يحب ولا يكره، أو فى موقف من لا يفرح أو يتضايق، أو فى موقف من لا يفعل بطريقة أو بأخرى.

ثالثاً - الجمود الإرادى: ومن أسباب إصابة الضمير بالشلل، تلك الحالة التى تكون فيها الإرادة متوقفة عن العمل، سواء بالإقدام أم بالإدبار. فالشخص المصاب بالجمود الإرادى، حتى إذا استطاع أن يكتشف الوسيلة التى قد تمكنه من الخروج من المأزق الذى يوجد به، فيجعله ميالاً إلى الانتحار، فإنه يجد نفسه عاجزاً عن إحالة ما يجول بخاطره من أفكار إلى واقع مؤدى بالفعل بواسطة الإرادة.

رابعاً - العجز عن استشراف المستقبل: ومن أسباب إصابة الضمير بالشلل، عجز المرء عن النظر إلى الأمام، بل يكون محصوراً فى نطاقه الداخلى، وأيضاً عدم الوقوف على الظروف المحيطة به، وما يتوقع توافره من إمكانيات فى المستقبل القريب أو فى المستقبل البعيد، وبالتالي التوقف عن التفكير والتخطيط، والانحصار فى نطاق هنا والآن فحسب.

خامساً - الفقر الثقافى: ومن أسباب إصابة الضمير بالشلل، انحطاط المستوى الثقافى لدى المرء، وعدم مسايرته

للمستوى الثقافى الاجتماعى فى المجال الذى يعمل فيه، بل
رزوحه تحت نير الأمية الثقافية. فمن المعروف أن الثقافة هى
أقوى سلاح يتسنى للمرء بواسطته أن يَشُقَّ به طريقه إلى
مستقبل أفضل من حاضره. فعندما يكتشف المرء أنه غريب
عن مجتمعه، وأنه عاجز عن السعى وراء أبناء جلدته الذين
سبقوه ثقافياً ويتعاملون بالوسائل الثقافية المتطورة، فإنه
يصاب بالتالى بالشلل فى التفكير والعاطفة والإرادة، كما أن
ضميره يتوقف عن العمل، وعن المشاركة الحضارية بطريق أو
بآخر.

شروط الضمير السوى:

وعلىنا فى نهاية المطاف أن نعرض الشروط الواجب
توافرها فى الضمير حتى يتسنى وصفه بالسوية:

أولاً - الدقة فى تقييم سلوك المرء: فلكى يتسنى وصف
الضمير بالسوية، فإن من الضرورى أن يكون دقيقاً فى تقييم
سلوك صاحبه بغير إفراط أو تفريط. فهو لا ينحو إلى المبالغة
فى تقييم الأخطاء التى تصدر عنه، كما لا ينحو أيضاً إلى
التهوين من شأنها.

ثانياً - ربط الماضى بالحاضر بالمستقبل: فصاحب
الضمير السوى، يقيّم التصرفات التى صدرت عنه،

والتصرفات التى تصدر عنه حالياً، والتصرفات التى سوف يتخذها فى المستقبل القريب والمستقبل البعيد. ومن ثمّ فإنه يتخذ المواقف المناسبة لعلاج ما ترتب على تصرفات الماضى من آثار سيئة، ولتخاشى النتائج السيئة التى قد تترتب على تصرفاته فى الحاضر والمستقبل على السواء.

ثالثاً - التكيف مع التقييمات الاجتماعية: فصاحب الضمير السوى، يعتمد إلى تكيف ضميره لمقتضيات الواقع الاجتماعى الذى يعيش فى إطاره، ويتعامل معه، ويتأثر به ويؤثر فيه. فإذا وجد أن ضميره متخلف عن قيم ذلك الواقع الاجتماعى، فإنه يعمل على شحذ همته حتى يلحق بالركب التقييمى الاجتماعى، ويتوازى معه، ولا يتخلف عنه.

رابعاً - الحدس والإلهام: وصاحب الضمير السوى يكون متمتعاً بالحدس Intuition، أعنى استقراء الواقع المحسوس مباشرة، بغير استناد إلى مقدمات تؤدى إلى النتائج، أو بتعبير أدق القدرة على القفز المنطقى دون المرور على جميع المحطات الفكرية التى تؤدى ذهنياً إلى النتائج. أما الإلهام Inspiration فهو تلقى رسائل إلهامية ذهنية من الواقع الخارجى، أو تلقى أفكار أو خطط لتنفيذها، فتعود على المرء بالفائدة المادية أو بالفائدة المعنوية، أو بالفائدتين معاً.

خامساً - القدرة على التنفيذ والتأثير: وصاحب الضمير السوى هو ذاك الذى يستطيع أن يخرج ما فى مكنون نفسه إلى الواقع الخارجى، كما تكون لديه القدرة على الضبط السلوكى، فلا ينساق وراء الميل إلى الانتحار، بل يُجْجمه، ولا يسمح له بالسيطرة على قوامه النفسى، والتحكُّم فى تصرفاته، وهو أيضاً ذاك الذى يؤثر فى الناس والأشياء، ويكون لتأثيره فاعلية طيبة فى حياتهم الحاضرة والمقبلة على السواء.

* * *

الفصل الثامن

الضمير المُلْتَهَب

معنى الضمير المُلْتَهَب:

نقصد بالضمير المُلْتَهَب مجموعة من المعانى أو الحالات التى نستطيع تقديمها على النحو التالى:

أولاً - تضخيم الأخطاء: فصاحب الضمير المُلْتَهَب، يجعل الخطأ الصغير خطأ ضخماً، أو جريمة لا يمكن أن تفتقر أو يُفْضَى عنها، وذلك عن طريق تخیلاته المنحرفة عن الواقع.

ثانياً - توهمُ أخطاء لم تصدر عن المرء: فصاحب الضمير المُلْتَهَب، يمكن أن يخلق بمخيلته، أخطاء أو انحرافات سلوكية، لم تصدر عنه أصلاً، ولكنه ينسبها إلى نفسه، وربما يكون قد قرأ عنها فى كتاب أو مجلة، ولكنه بالوهم يعزوها إلى نفسه، كما لو أنه قد اقترفها بالفعل، وبالتالي فإنه يحس بأنه مذنب.

ثالثاً - عدم التمييز بين ما يطرأ على الذهن وبين ما

يمارس فى الواقع : فصاحب الضمير الملتهب، يعتقد أن ما يغزو فكره، فإنه يكون بالضرورة قد سيطر عليه، ولا فرق فى نظره بين الفكرة وبين التصرف الواقعى، أعنى تجسيدها فى واقع سلوكى. فالفكر فى نظره هو الجوهر، أما التصرف الخارجى فهو القشرة الظاهرية لذلك الجوهر. وعلى هذا فإنه يحسب نفسه مخطئاً أشد الخطأ، لأن الأخطاء السلوكية تجد لها مكاناً فى ذهنه فى هيئة أفكار.

رابعاً - عدم التفرقة بين الكلام وبين ما يشير إليه من تصرفات: فصاحب الضمير الملتهب، يعتقد أن الكلام الذى يفوه به، لا يقل خطورة عن التصرفات التى تترجم كلامه إلى سلوك مؤدى فى الواقع الخارجى. وعلى هذا فإنه يفضل الصمت على الكلام، حتى لا يستشعر ما يتضمنه من خطأ يحسب عليه، أو يحاسب نفسه عليه، كما لو أنه تصرفات بادية للعيان.

خامساً - خدش مشاعر الآخرين خطأ لا يغتفر: فصاحب الضمير الملتهب، يكون حساساً لمشاعر الآخرين. وأخشى ما يخشاه أن يخدش مشاعر غيره، سواء بكلمة أم بحركة أم بموقف. وهو لا يميز بين الناس من حيث ما يجب توظيف الكلام والتصرفات بإزائهم، بحسب مقتضى الأحوال، وما يستحقه كل موقف من كلام أو تصرف، بغض النظر عن

مشاعر من يوجّه إليهم الكلام، أو عما يتخذها بإزائهم من مواقف.

العوامل المؤثرة في الضمير الملتهب:

وبعد أن قدمنا هذه المعانى أو الحالات التى يتصف بها صاحب الضمير الملتهب، فإن علينا أن نحاول كشف الستار عن العوامل التى تُحيل بعض الأشخاص إلى أصحاب ضمائر ملتهبة، فنجد أن هذه العوامل يمكن أن تتحدّد على النحو التالى:

١

أولاً - رهافة الحس الشديدة: فصاحب الضمير الملتهب، يكون مرهف الحس جداً، بحيث تحتل مشاعره المrehفة مركز البؤرة فى قوامه النفسى. فهو لا يتكيف بمشاعره للواقع الموجود حوله، أو الذى يحثك به، ويتعامل معه، بل إن المهم لديه هو الحفاظ على مشاعره من أن تتثلم. وهو لا يميز بين شخص وآخر من حيث استحقاقه لنوع معين من المعاملة يتناسب مع قوامه النفسى، ومع أخلاقه، ومع ما يصدر عنه من تصرفات، فهو ينظر إلى جميع الناس باعتبارهم ملائكة، لا تصدر عن أى منهم، أى تصرفات أو كلام يستحق أن يقابل بالخشونة، أو بتصرفات مقابلة تلجّمه، وبكلام خشن يُسكّته.

ثانياً - التسلّح بالحب ونبد الكراهية: فصاحب الضمير

الملتهب، لا يعرف قلبه إلى الكراهية سبيلاً. والواقع أن الشخص السوى، يعتبر أن الحب والكراهية وجهان لعملة واحدة. ومن المستحيل أن يكتفى المرء بالحب في تعامله مع الناس، أو في علاقاته بهم. فصاحب الضمير الملتهب يتألم نفسياً، عندما يحس بالكراهية من شخص أو من تصرف ردىء يبيده أى شخص، ويعاتب نفسه بشدة، لأنه يكره بعض الأشخاص أو بعض التصرفات التى تصدر عن أى من أصدقائه أو معارفه، ويعتقد أنه قد انحرف عن طريق الخير، وانخرط فى طريق الشر.

ثالثاً - التشبث بالمبادئ المطلقة: فصاحب الضمير

الملتهب، لا يأخذ فى اعتباره ما تتطلبه المواقف والظروف المختلفة من تعديل فى السلوك، بل أهم ما يهمله هو سريان المبادئ المطلقة فى كل موقف، وفى كل وقت، ولا تهمله النتائج التى يمكن أن تترتب على التشبث بتلك المبادئ المطلقة، وإهمال مقتضيات المواقف، وما يحدث من تطورات مستمرة فى العلاقات والمواقف والظروف.

رابعاً - نتائج السلوك لا تهّم: ويبدو تناقض فى سلوك

صاحب الضمير الملتهب، فبينما نجده يحب الناس دون تمييز فيما بينهم، وأنه يجب باستمرار ويحاول ألا يكره، فإنه فى

الوقت نفسه، يهتم بالتشبيث بالمبادئ المطلقة، بغير إنعام النظر فيما يمكن أن يترتب على تمسكه بها من نتائج. فهو يظل متحمساً باستمرار لتطبيق تلك المبادئ المطلقة، ولا يحيد عنها، غاضاً النظر عن نتائج تطبيقها من نفع أو ضرر، سواء بالنسبة له شخصياً، أم بالنسبة للآخرين الذين يتعامل معهم.

خامساً - صاحب الضمير الملتهب لا يتطور: ويترتب على تمسك صاحب الضمير الملتهب بالمبادئ دون النتائج التي يمكن أن تترتب على تطبيقها، عدم إحرازه لأى نمو فى شخصيته، ودون أن يتطور سلوكه لكى يتواءم مع مقتضى الحال، ومع الظروف المتغيرة التى تحيط به، أو بغيره من أشخاص. فهو ملتف حول ذاتيته، بحيث تكون تلك الذاتية هى المنبع الأول والأخير لما يفوه به من كلام، أو لما يصدر عنه من تصرفات، أو لما يضمه من خطط، يتوخى تنفيذها، أو لما يترسمه من أهداف، يجتهد فى تحقيقها.

علاقات صاحب الضمير الملتهب بالآخرين:

وعلىنا بعد هذا أن نتناول النتائج التى تترتب على سلوك صاحب الضمير المتوهج من حيث علاقاته بالآخرين الذين يتعامل معهم، فنجد أن هذه النتائج تتمثل فيما يلى:

أولاً - تجنب الاختلاط بالناس بقدر الإمكان: فصاحب

الضمير الملتهب، يجد أن الناس من حوله يتحاشونه، فيتحاشاهم بدوره، وإذا اختلط بغيره، فإن صداماً سلوكياً يحدث بينه وبينهم. ذلك أنه يتوقع فى نطاق المبادئ المطلقة، بينما يحاول معظم من يختلط بهم التكيف للمتغيرات التى تطرأ على المجتمع الذى يحيون فى إطاره، ويتضمن موقف صاحب الضمير الملتهب، تنازلاً بينه وبين الناس الذين يحيطون به. ويتبدى هذا التنازلى فيما يتصرفون به بإزائه، سواء بالغمز واللمز، أم بالتهكم عليه، والسخرية منه، أو باللامبالاة وعدم توجيه الحديث إليه، أو بعدم إشراكه فى أسرارهم، أو فيما يهمهم من أمور تشغلهم، خاصة بالواقع الخارجى، وبالأحداث التى تهز مشاعرهم، أو تثير انتباههم.

ثانياً - التخلّف عن الركب الاقتصادى: فالواقع أن منطق القيم المطلقة، والأخلاق المتزمتة، يتعارض أو لا يماشى منطق النجاح والريخ الوفير فى المجال الاقتصادى. ذلك أن الاقتصاد يعتمد على تفهم المتغيرات التى تحدث فى السوق، والتكيف معها، بل إنه يعتمد أيضاً على مدى مراعاة رجل الاقتصاد للأمزجة والظروف التى تكتنف حياة من يتعامل معهم. وحيث إن صاحب الضمير الملتهب ينبو عن التماشى مع ركب الواقع، ويقع فى نطاق المبادئ المطلقة، فإنه لا يستطيع بالتالى أن يرتقى إلى مراقى الرخاء الاقتصادى، بسبب جموده، وتصلّبه فى نطاق مبادئه المطلقة.

ثالثاً - عدم البصر بالمستقبل : فصاحب الضمير الملتهب، لا يستطيع أن يستشرف آفاق المستقبل، واحتمالاته المتوقعة، وذلك لأنه يسجن فكره فى نطاق تلك المبادئ المطلقة، وما تتضمنه من وسائل سلوكية، تتعلق بالكلام، أو بالتصرفات المتباينة. فما يهمله هو ما يصدر عنه وعن غيره هنا والآن، ولا يهمله ما سوف يؤول إليه حاله، أو حال الآخرين بعد فترة من الزمن تقصر أو تطول.

رابعاً - لا يسلك إلا فى ضوء معيار سلوكى واحد: فصاحب الضمير الملتهب، لا يعاير سلوكه أو سلوك غيره إلا بمعيار مطلق ووحيد، هو معيار الخير والشر، بينما يسقط من حسابه معيار المناسب وغير المناسب، ومعيار المفيد والضار. ولا يهمله بأى حال أن يتصادم سلوكه من الأعراف الاجتماعية، أو مع ما يمكن أن يترتب على اتخاذه من تصرفات تفضى إلى حدوث أضرار بالغة، سواء له أم للآخرين، أصدقاء كانوا أم أعداء.

خامساً - الصداقة فى نظره صداقة مبادئ وليست صداقة تربط بين قلبين: فصاحب الضمير الملتهب، لا يقيم صداقة مع شخص ما لأنه أحبه لذاته، بل يصادق من يؤمن بمبادئه. وكذا فإنه لا يعادى شخصاً لذاته، بل يعادى من يجد أن مبادئه لا تتسجم مع ما يؤمن به من مبادئ، أو تتنافر معها.

العوامل المعتملة فى صاحب الضمير الملتهب:

وعلىنا فى نهاية المطاف أن نقوم بإلقاء الضوء على
العوامل المؤثرة فى شخصية صاحب الضمير الملتهب، فنجد أن
تلك العوامل يمكن أن تتحدد على النحو التالى:

أولاً - العوامل الموروثة: فالواقع أن المرء، لا يولد كصفحة
بيضاء، تقوم التربية بنقش ما تريده عليها، بل إنه يكون
مجهزاً بمقومات وراثية، إما أن تقوم التربية بإبرازها
وإخراجها من حيز الكمون إلى حيز الواقع السلوكى، وإما أن
تقوم بإخفائها أو بالتخفيف من وطأتها على الشخصية.
فالشخص المتسم بالضمير الملتهب، يكون قد ورث استعدادات
تحمله على أن يصير ضميره ملتهباً.

ثانياً - المكبوتات اللاشعورية: فما لقيه صاحب الضمير
الملتهب من مؤثرات بيئية، ومن معاملة متصلبة خلال طفولته،
يترسب جانب منها فى لاشعوره، تسيطر على مقاليد سلوكه،
وتعمل على الإمساك بدفته وتوجيهها. فكمرة النهى، وتوقيع
العقوبات الصارمة عليه خلال طفولته، يشكل عوامل مساعدة
على التمسك بالمبادئ المطلقة، ومخاصمة الواقع الحى الذى
يحيا فى نطاقه، ويتعامل معه.

ثالثاً - الحرمان من الخيارات التي يمكن أن ينتقى منها:
فالحرية التي حرم منها صاحب الضمير الملتهب منذ نشأته
طفلاً، تجعله لا يتخذ سوى طريق واحد، عليه أن يضرب فيه،
ولا يتخطاه إلى أى طريق آخر. فلا توجد أى خيارات أخرى
أمامه سوى المبدأ الذي فرض عليه فى طفولته، فصارت حياته
ضحلة وفقيرة، وتفرض عليه أن ينهج وفق خط واحد ووحيد.

رابعاً - ما يتلقاه من إحياءات وما يقوم به من تقليد:
فمما لا شك فيه أن الأسرة المتزمنة، تتجرب فى الغالب
شخصيات متزمنة، أو ملتعبة الضمير. ولكن علينا ألا نعمم.
ذلك أن بعض الأطفال والمراهقين والشباب الذين ينشؤون فى
نطاق أسر متزمنة وملتعبة الضمير، قد يتخذون الموقف
العكسى، أو بتعبير آخر، فإنهم بدلاً من تلقى الإحياءات
بطريقة إيجابية تقبلية مطابقة لما يعتمل فى شخصيتى
الوالدين، فإنهم يعكسون ما يتلقونه منهما، وينحوان إلى
التحرر، وتحطيم ما يصلهم منهما من إحياءات، ويقدمون
سلوكاً مضاداً للسلوك الذى يشاهدونه فى والديهم.

خامساً - العوامل الثقافية المتزمنة: فالإنعلافية الثقافية،
والانحباس فى نطاق ثقافى ضيق، يعمل على انغلاق الفكر،
فالبينة الثقافية التي تتحو إلى تحديد مبادئ صارمة، يجب

الخصوع لها، وعدم العزوف عنها، بل وعدم تطويرها وفق الظروف والمستجدات البيئية في المجتمع الذي يحيا فيه المرء، ويتعامل معه، كثيراً ما تعمل على قوقعة المرء في قوقعتها، وبالتالي فإنه ينحو في الغالب إلى التلبس بالضمير الملتهب.

■ * *

الفصل التاسع

الضمير الفاتر

صفات صاحب الضمير الفاتر:

فى مقابل الضمير الملتهب، نجد الضمير الفاتر. ونحن نقصد بهذا اللفظ، مجموعة من الصفات التى يتصف بها صاحب هذا الضمير الفاتر، نستطيع تقديمها فيما يلى:

أولاً - ضعف القدرة على النقد الذاتى: فكما أن هناك ذكاء مرتفعاً وذكاء متوسطاً وذكاء منخفضاً لدى الأشخاص المتباينين، كذا فإن هناك أشخاصاً لديهم قدرة مرتفعة على نقد أنفسهم، وأشخاصاً لديهم هذه القدرة النقدية بدرجة متوسطة، وأشخاصاً لديهم هذه القدرة بدرجة ضعيفة. وأصحاب الضمير الفاتر تكون لديهم هذه القدرة، ضعيفة واهنة، أعنى قدرتهم على نقد أفكارهم وعواطفهم، وما يفوهون به من كلام، وما يأتونه من تصرفات.

ثانياً - تَشَوُّشُ القِيمِ لديهم: فأصحاب الضمير الفاتر، تختلط لديهم القِيم. فهم لا يتسنى لهم إقامة فواصل قاطعة وواضحة بين الخير والشر، أو بين المناسب وغير المناسب، أو بين المفيد والضار. فبعض الخير يختلط لديهم بالشر، وبعض المناسب يختلط لديهم بغير المناسب، وبعض المفيد يختلط لديهم ببعض الضار. وبتعبير آخر فإن ثمة غموضاً وغبشاً يخلط بين قطبي كل ثنائية من هذه الثنائيات الثلاث. ولا شك أن هذا الغموض والغَبَش، يتواكب مع ضعف الضمير، لأن صاحبه يعجز عن إصدار حكم قاطع، ينضم بواسطته إلى قطب من قطبي كل ثنائية من الثنائيات الثلاث التي ذكرناها، أعنى الخير والشر من جهة، والمناسب وغير المناسب من جهة ثانية، والمفيد والضار من جهة ثالثة.

ثالثاً - الاندفاع مع عجلة الحياة: فكثرة المشاغل، والانخراط في زحمة العلاقات، واستلاب الأحداث لوقت وجهد المرء، تجعله غير قادر على ملاحقة المواقف التي عليه أن يُصدّر أحكاماً بإزائها. فلا تبقى لديه طاقة أو وقت، لكي ينعم النظر في كل حالة من الحالات المتعددة والمتلاحقة بعضها بعد بعض التي ينخرط فيها، ومن ثم لا يتسنى له أن يُصدّر الحكم الصائب بإزاء كل حالة منها. ويتأتى عن ذلك الزحام والتدفق والضغط على ذهن المرء وعلى جهازه النفسى

بصفة عامة، إصابته ببلادة الضمير وفتوره. ذلك أن الضمير لى يكون واعياً وقوياً وماضياً فى أحكامه، فلا بد للمرء من تأمل كل حالة من الحالات التى تُعرض أمامه، بروية وهدوء، وأن يتسنى له تخصيص الوقت الكافى لإنفاقه فى مدارس كل موقف وكل حالة. وهذا ما لا يتسنى لمعظم الناس، وبالتالي فإن الكثير منهم يصابون بوهن الضمير أو فتوره.

رابعاً - سيادة معيار الفائدة واللذة: فالشخص الذى تغريه الفوائد والملاذات، وتهيمن على أفقه النفسى، وتأسره لجانبها، وتُخضع فكره وعواطفه وإرادته لها، يصاب تبعاً لذلك بفتور الضمير، أو بتعبير آخر، فإن ضميره ينزوى بعيداً عن الحق والخير، ولا يتسنى له التمييز بين القيم المتباينة، حتى ولو كان فى مقدوره أن يكون على درجة من الذكاء تسمح له بالتمييز فيما بينها، لو لم تكن غشاوة الانحياز إلى ما يفيد وما يلذه، قد ضريت بأطنابها فى قوامه النفسى.

خامساً - التبعية المطلقة للجمهرة: فمن المعروف أن التمييز بين القيم، إما أن يكون فردياً، وإما أن يكون جمعيّاً. ولكن لا بد من توافر الضمير الفردى إلى جانب الضمير الجمعى، حتى يتسنى للمرء أن يكون متمتعاً بالصحة النفسية الجيدة. ولكن إذا ضغط المجتمع على الفرد، بحيث يذيب ضميره الفردى، ولا يَبْقَى سوى الضمير الجمعى، يستمد منه

أحكامه. فإنه يصاب بالتأكد بالوَهْن، وقد صار ما يزعم أنه صادر عن ضميره الفردى ليس سوى صدى لما يفرزه ضمير المجموعة التى ينتسب إليها ويذوب بشخصيته وإرادته فيها. ونحن نعلم أن المجتمع القومى عبارة عن عديد من المجتمعات الفرعية. فالشخص الذى فقد استقلال ضميره الشخصى، لابد أن يغير جلدَه، كلما انخرط فى نطاق مجتمع ما من هذه المجتمعات الفرعية الكثيرة. وبالتالى فإنه لا يكون صاحب شخصية متمتعة بالاستقلال، فيما تصدره من أحكام، بل ويكون ضميرا الشخصى فى هذه الحالة فاتراً ضعيفاً .

العوامل المؤدية إلى فتور الضمير:

وهناك بلا شك مجموعة من العوامل التى تؤدى إلى فتور الضمير عند بعض الناس، لعلنا نقوم بتقديمها فيما يلى:

أولاً - التسبب التربوى: فالأسرة المفككة، أو الأسرة التى تتخذ موقف اللامبالاة من أطفالها، ولا توفر لهم التربية الأخلاقية والدينية السوية، التى تحملهم على التبصر بما هو خير وما هو شر، وما هو مناسب وما هو غير مناسب، وما هو مفيد وما هو ضار، فإنها تفشل فى تربية ضمائهم الفردية. ولا شك أن تركيز الأسرة بصدد تربية أبنائها على ما يتعلق بالمنهج الدراسى، مع إهمال التربية الأخلاقية،

وعدم العمل على تشريبيهم القيم الروحية والأخلاقية السليمة،
يؤدى بالتأكيد إلى عدم توفير الفرصة لنمو الضمير بالمستوى
الفردى الكافى لإصدار الأحكام الصائبة بصدد المواقف
والأحوال المتباينة.

ثانياً - الانحرافات النفسية: ومن العوامل التى تؤدى إلى
فتور الضمير، إصابة المرء بالانحرافات النفسية، التى تؤثر فى
قدرته على ممارسة التفكير الصحيح، أو على التلبس
بالمواطف النبيلة، والاستمسك بالمثل العليا، أو على إصدار
الأحكام السلوكية السديدة. وبعض الأمراض النفسية كالسرقة
المرضية أو المخاوف المرضية، تكون مصحوبة بخفوت قوة
الضمير وفتوره وعدم الشعور بالحمة والغيرة على الأساليب
السلوكية السوية.

**ثالثاً - الشعور بالإحباط وعدم جدوى التثبت بأوامر
الضمير:** فالكثير من المصابين بفتور الضمير، يعززون فتورهم
هذا إلى أنهم عندما كانوا متمسكين بما كانت تأمرهم به
ضمائرهم الشخصية التى كانت مفعمة بالقوة والحيوية، فإنهم
لم يحفظوا بالنجاح فى حياتهم، بل كانوا موضوعاً للهزاء
والسخرة من جانب أصدقائهم ومعارفهم، ولكنهم بعد أن
استسلموا لما هو شائع حولهم، وبعد أن عمدوا إلى التكيف
للمواقع الاجتماعية المحيط بهم، فإنهم صاروا ناجحين فى

علاقاتهم الاجتماعية. ومن ثمَّ فإنهم تنازلوا عن الحَمِيَّة التي كانوا يتذرَّعون بها في حياتهم، وخلدوا إلى الضمير الواهن الفاتر، ولم يعودوا يتشبثون بما كانوا يتشبثون به من أحكام قاسية يصدرونها بإزاء المواقف والنزوات والخروج على القيم الأخلاقية.

رابعاً - ميوعة القيم والخلط فيما بينها: ومن العوامل التي تؤدي إلى ذبول الضمائر ووهنها، ما شاع في الأذهان بين المراهقين والشباب من الجنسين بصفة خاصة، بأنه لا توجد فواصل واضحة بين الخير والشر، أو بين الحق والباطل، أو بين المناسب وغير المناسب، أو بين المفيد والضار. وساعد على هذا التَشَوُّش الذي شاع بينهم، ما يشاهدونه اليوم بكثرة على شاشات التليفزيون، ومن خلال أفلام الفيديو، من أفلام تشجع على إشاعة روح الإجرام، وتتجاوب مع الخارجين على القيم السلوكية، وبخاصة القيم الجنسية. وقد أدى إقبال المراهقين والشباب من الجنسين على مشاهدة تلك الأفلام وتشبعهم بها، تنازلهم عما كانوا قد تشربوه من قيم دينية وأخلاقية تقليدية سديدة ومطلقة.

خامساً - قهر القيم النسبية للقيم المطلقة: فبعد أن كانت القيم المطلقة هي السائدة على الآفاق النفسية عبر الأجيال

القديمة، إذ كانت الفكرة أو العاطفة أو الإرادة إما خيرة وإما شريرة، فإن النسبية صارت اليوم هى السائدة، فصارت الفكرة أو العاطفة أو الإرادة موصوفة بالخيرية فى موقف ما، وبالشرية فى موقف آخر. وما يعتبر خيراً بالنسبة لشخص ما، يعتبر شراً بالنسبة لشخص آخر، وما يعتبر خيراً فى أحد المجتمعات، يُعتبر شراً فى مجتمع آخر، بل إن ما يعتبر خيراً بالنسبة لمجتمع ما فى عصر ما، يعتبر شراً للمجتمع نفسه فى عصر آخر. ولقد تأتى عن هذه الفوضى والتداخل والامتزاج بين الخير والشر، ذبول الضمائر، وضربها بالخفوت والضمور والفتور.

النتائج السلوكية المترتبة على فتور الضمير:

وعلىنا بعد هذا أن نلقى الضوء على النتائج السلوكية التى تتأتى عن فتور الضمائر، فنجد أن تلك النتائج يمكن أن تتحدد على النحو التالى:

أولاً - هبوط مستوى الانتماء: فالواقع أن ثمة توازياً بين قوة الضمير وبين قوة الانتماء الأسرى، والانتماء الدينى، والانتماء القومى. فكلما ضعفت قوة الضمير، وخفت حيويته فى قلوب الناس، ذبل انتماؤهم ومناصرتهم لقضايا دينهم، وانتماؤهم ومناصرتهم لقضايا وطنهم، وانتماؤهم ومناصرتهم لأسرهم. ألا ترى أن الروابط فى نطاق الأسرة الواحدة قد

ذبلت، وصار الأخ شخصاً غريباً فى نظر أخيه! إن هذا يرجع بلا شك إلى تضاول الضمائر وذبولها وخفوت قوتها وفتور حيويتها.

ثانياً - الغش والالتواء: ويترتب على وهن الضمائر وخفوتها وفتور قوتها، شيوع الغش والخداع والالتواء فى علاقات الناس بعضهم مع بعض. فقد يما كان التفوه بالقسم شاهداً على الحقيقة التى لا يداخلها أى غش أو خداع، ولكن التفوه بالقسم صار اليوم بعد أن شاع الضعف والوهن والخلل والفتور فى الضمائر، وسيلة للكسب، وللضحك على ذقن الزيون الساذج، الذى ما يزال يؤمن بصدق من يقسم بأغلظ الأيمان أو بالطلاق ثلاثاً. وينظر إلى ذلك الزيون الساذج باعتباره فريسة طرية يمكن اقتناصها لابتزازها، بعد خداعها بالكلام المنمق، أو بالقسم المؤدى بطريقة جادة وممتلئة بالحرارة، كتلك الحرارة التى تشاهد على وجوه الممثلين بالسينما والمسرح.

ثالثاً - الرياء والنفاق والتلون مع مقتضى الحال: ومن النتائج التى تترتب على خفوت الضمائر وفتورها، انتشار السلوك الحريائى بين كثير جداً من الناس. فالأشخاص العاديون صاروا على أعلى مستوى من المهارة فى تمثيل الأدوار الكثيرة المتباينة على مسارح الحياة اليومية، بل

والمتناقضة فى بعض الأحيان بعضها مع بعض، والتى يتلبسون بها كلما تطلّبت المواقف الاستعانة بها، لكى ينجحوا فى جلب كسب، أو خروج من مأزق، أو خداع شخص أو أشخاص، أو استمالة قلوب الناس وتعلّقهم بهم، أو إشاعة الرعب فى قلوبهم، أو توريطهم فى مشروعات وهمية، أو غير ذلك من مواقف، تستدعى القيام بتمثيل دور أو أدوار معيّنة. ولعلنا لا نقول بدعاً إذ نقرر أن الناس صاروا يتخذون من ممثلى السينما والمسرح أساتذة لهم فى أداء الأدوار التى يضطلعون بها فى حياتهم اليومية. فخفتت ثقة الناس بعضهم فى بعض. وزاد تربيّصهم بعضهم ببعض.

رابعاً - هبوط الحب والصدقة إلى مستوى السلعة: ونقد تأتى عن إصابة الضمائر بالفتور والضعف والوهن، أن استحالة الحب بين الناس، والصدقة فيما بينهم، إلى مجرد سلعة تستهلك بمجرد انتهاء الموقف الذى يتطلبه استخدام تلك السلعة. فما دامت المصلحة ما تزال معلقة، فيكون هناك إذن سبب وجيه لاستخدام السلعة التى تسمى الحب يديه صاحب المصلحة لمن بيده قضاء تلك المصلحة. ولكن ما أن تُقضى مصلحته، فيكون من العبث فى نظره الاستمرار فى الاستمساك بتلك السلعة، بل يجب التخلص منها، أو توفيرها لاستخدامها مع شخص آخر، يكون للمرء مصلحة جديدة عنده. وبتعبير آخر فإن الحب صار وسيلة يستعان بها وقت

الحاجة. وكذا يقال عن الصداقة بين الأصدقاء فى وقت فترت فيه الضمائر واضمحلت قوتها وخفتت. فالصداقة اليوم يمكن تعريفها بأنها علاقة تقوم بين شخصين أو أكثر، حتى يتسنى قضاء الوقت للترفيه، والتخفف من متاعب الحياة، أو تذليل صعوبة، أو عقد صفقة أو إحراز ربح، أو الإحساس بالعمرة. فكل صديق لا يوفر لصديقه الوقت الممتع، أو لا يذل أمامه صعوبة، أو لا يترتب على صداقته الحصول على مكانة اجتماعية مرموقة، فإن صداقته تتحطم فوراً.

خامساً - الكراهية والتربص اللذان يُطنان الحب:
فعندما تخفت قوة الضمير، ويصير متهاكاً وفاتراً، فإن الكراهية والتربص يستوليان على القلوب، ولكن حيث إن الإنسان كائن حريائى، يستطيع أن يغير جلده، وأن يبدى من السلوك غير ما يُطن، فإن بمقدوره إذن أن يُقبل على من يبغضهم أشد البغض، فيفرقهم بالأحضان والقبلات والكلام المعسول، بل إنه يستطيع أن يشكّل نظراته التى يحدّق بها فى وجوههم، ويكيّف ملامح وجهه، فيجعلها تتطوّر بكل الحب والشوق العميق، والتعبير بأبلغ العبارات التى تؤكد للمحبيب العدو - إذا صح التعبير - بأنه لا يستطيع أن يستغنى عنه لحظة واحدة.

* * *

الفصل العاشر

الضمير العادل

خصائص صاحب الضمير العادل:

نقصد بالضمير العادل، مجموعة من الخصائص التي يتمتع بها صاحب هذا الضمير، نستطيع تقديمها على النحو التالي:

أولاً - وزن الأمور بميزانها الصحيح: فالشخص المتمتع بالضمير العادل، لا ينحو إلى المبالغة في تقدير المواقف والأحداث، كما لا ينحو إلى التهوين من شأنها. فحديده أن يعطى كل موقف حقه بغير إفراط وبغير تفريط. وبالتالي فإن ضميره لا يحتاج لأسباب لا تستحق منه أن يبدي التوتر الزائد، كما أنه لا يتوانى أو يتكاسل أو يتباطأ أو يتخذ موقف اللامبالاة بإزاء أحداث أو مواقف تستحق منه أن يعطيها حقها من التوتر والاهتمام والقلق والانزعاج.

ثانياً - **التفكير التكاملي** : وصاحب الضمير العادل، لا يقتصر عمل ضميره على ما حدث في الماضي، أو على ما يحدث في الحاضر، أو على ما سوف يتصرف به في المستقبل، بل إن ضميره يشمل بإزاء أحداث الماضي والحاضر والمستقبل جميعاً. وكذا فإن صاحب الضمير العادل يُولي اهتمامه بجميع المسائل والمواقف والأحداث، دون أن يُسقط أى مسألة أو أى موقف أو أى حدث من حسابه. كما أنه لا يركّز على ما يخص بعض الأشخاص دون غيرهم، بل يأخذ في اعتباره جميع الناس الذين يتّصل بهم، أو يتعامل معهم، أو تكون له علاقة بهم.

ثالثاً - **النظرة الاستشرافية**: وصاحب الضمير العادل، يتمتع بنظرة تنبؤية لما يمكن أن يترتب على ما يضطلع به في الحاضر من نتائج. فهو يقوم باستعراض تلك النتائج المتوقعة، وبعابرها بما تستحقه من تقييم وتقدير، فيتوخى أن تكون تلك النتائج المتوقعة، متمشية مع قيم الحق والخير والجمال.

رابعاً - **التقييم الإطلاقي والتقييم النسبي**: وصاحب الضمير العادل، يميّز الأمور التي يجابهها في الحياة، فيفرّق بين ما يجب تقييمه بطريقة مُطلقة، وبين ما يجب تقييمه بطريقة نسبية. والتقييم الإطلاقي لا يقبل أخذ الظروف

الراهنة أو الميول العاطفية فى الاعتبار لدى تقييم المواقف المختلفة، فهو لا يقبل التنازل أو الإغضاء عن أى جانب منه، فهو تقييم كلى، لا يقبل التجزئ أو التنازل عن جانب ولو ضئيل منه. أما التقييم النسبى فهو تقييم يقبل الزيادة والنقصان، كما يقبل التأجيل أو الإلغاء، ويقبل أيضاً التوصل إلى الحلول الوسط، وأخذ الظروف والمواقف فى الاعتبار. فمثلاً بالنسبة للشرف أو الكرامة، فإن صاحب الضمير العادل يضعهما فى قائمة الإطلاق. أما الحقوق المادية، فإنه يضعها فى قائمة النسبية، إذ أن بالإمكان أن يتنازل عن بعض تلك الحقوق لأسباب إنسانية، أو فى ضوء تقدير ظروف من له عندهم حقوق مالية يجب عليهم الوفاء بها.

٧

خامساً - اليقظة المستمرة: وصاحب الضمير العادل، يكون متمتعاً باليقظة الضميرية المستمرة، فلا يسمح لضميره بأن يتقاعس، أو أن يتكاسل، أو أن يتباطأ بسبب الغفلة، أو الرغبة فى النوم، أو بسبب الإرهاق فى العمل، أو نتيجة الإغراءات الجنسية، أو الوقوع تحت تأثير المجاملات، أو غير ذلك من علاقات. فهو شخص لا يخضع لتأثير الآخرين بالعواطف والكلام المعسول، الذى يوجهه إليه المفرضون لحمله على الانحراف عن الجادة، ولئى ضميره بالانحياز لشخص أو لفئة من الناس، أو بالتعصب ضدهم فهو فى حالة يقظة ضميرية مستمرة، لا تعرف إلى الالتواء سبيلاً.

المواقف الحرجة التي يقابلها صاحب الضمير العادل:

وعلينا بعد هذا أن نقوم فيما يلي باستعراض أهم
المواقف الحرجة التي يتعرض لها صاحب الضمير العادل،
والتي يجب عليه أن يصمد أمامها، ولا يطأطئ رأسه تحت
تأثيرها.

**أولاً - ما يمكن أن يترتب على موقفه العادل من خسارة
مالية:** فصاحب الضمير العادل، يتخذ موقف الحق، وليس
شيئاً غير الحق، بإزاء ما له وما عليه من حقوق مالية. فهو لا
يطالب إلا بحقوقه، كما أنه لا يتقاضى عن حقوقه مجاملةً لأى
شخص تكون له حقوق مالية عنده، أو خوفاً منه، أو حرجاً من
أن يחדش مشاعره. وكذا فإنه إذا طُلب للشهادة وتقديم
المعلومات التى تخص قريباً أو صديقاً له، فيما يتعلق بالحقوق
المالية التى له أو عليه، فإنه يُقر بما يعرفه بغير زيادة أو
نقصان، وبغير مبالغة أو إنكار.

ثانياً - انقلاب الصداقة إلى عدااء: فالكثير من الناس،
إذا لم يسايرهم المرء فيما يرغبون فيه، أو فيما يلائم أمزجتهم
المنحرفة، فإنهم يَقلِّبون له ظهر المجن، ويقاطعون، أو يعلنون له
أنهم لا يثقون فيه، لأنه لا يُعتمد عليه. ولكن صاحب الضمير
العادل، لا يهمه سوى توخى العدل فى الفكر والعاطفة والإرادة،

وتقدير المواقف المختلفة التى تتطلب منه قياسها بدقة، وعدم الاندفاع فى التيار النفسى الذى يرضى الآخرين ويتملّقهم.

ثالثاً - التهديد أو التملق: وصاحب الضمير العادل، لا تؤثر فيه المواقف التى يتعرض فيها لخطر التهديد بالإيذاء المادى، أو بالإيذاء الجسدى، أو بالإيذاء المعنوى. فهو لا يعرف إلا الحقيقة، ولا يفوه إلا بها، ولا يتمسك إلا بما يرضى ضميره العادل. وكذا فإنه يتصف بأنه لا يلين تحت تأثير الكلام المعسول، أو بالوعود البراقة، أو بإثارة عواطفه، أو بذكر مآثره أو مآثر أسرته، وأفضالهم على جميع من تعاملوا أو يتعاملون معهم، إلى آخر تلك الوسائل العاطفية التى يستخدمها بعض المتملّقين بمهارة فائقة، حتى يثنوا صاحب الضمير العادل عن موقفه الذى لا يعرف الزيّغ عن الحق. ولكن هيهات أن يلين لتلك الوسائل الخداعة، أو البعد عن الحق قيد أنملة.

رابعاً - الحرمان من بعض المزايا: ومن المواقف الصعبة التى يتعرض لها صاحب الضمير العادل، مناهضة من بيدهم الحل والريط له، وحرمانه من الترفقيات والعلاوات إذا كان مرءوساً لرؤساء منحرفين، وذلك لعدم انحرافه فى تيارهم، ولعدم الانجذاب لما يقومون بإغرائه به من مزايا، مادية كانت

أم أدبية. ولكنه لا ينشئ أمامهم، ولا يسعى لمرضاتهم، بل يهمله أن يراعى ما يأمره به ضميره. فكم من موظف أحيل إلى المحاكمة وزُجَّ في السجن، لأنه انخرط في تيار رؤساء فاسدى الذمة، ومعوجى الضمائر، فانحرفوا بضمائرهم، وأطاعوهم فيما كانوا يأمرتهم به، دون تمييز بين الخلق بالاتباع، وبين الخلق بالعصيان وعدم الانسياق.

خامساً - عدم الانسياق وراء الميول والعواطف: وصاحب الضمير العادل، لا ينساق وراء عواطفه الشخصية، وميوله الوجدانية. فهو يُرجِّح كفة العقل والحكمة، على كفة الوجدان والغرائز. فالشابة الجميلة الجذابة، مهما كان وَقَّعها على قلب صاحب الضمير العادل قوياً، فإنه يضبط نفسه، ولا يماشيها إلا فيما هو حق وعدل واستقامة. أما أن تستخدم جمالها لإغرائه والانحراف بسلوكه، أو خيانة وظيفته، فإنه من المُحَال بالنسبة له. فهو يظل شامخ الرأس عن أى انحراف، ومن أى انصياع وراء الأهواء والميول الوجدانية.

تقييم صاحب الضمير العادل لنفسه:

وعلىنا بعد هذا أن نتصفح القوام النفسى لصاحب الضمير العادل، وموقفه من نفسه، وما يستشعره نتيجة تقييمه لمواقف ضميره العادلة، فنجد أنه يستشعر ما يأتى:

أولاً - الثقة الكاملة بالنفس: فصاحب الضمير العادل، يحس باستمرار بأنه مرفوع الرأس، كما يحس أنه مالك لناصرية العالم بأسره. فهو واثق بنفسه، ولا يحس بالتبعية لأى إنسان بجانب الحق. فالحق هو الخلق بالاتباع فى كل موقف وفى كل زمان. فمهما كان وضعه الاجتماعى ضئيلاً، فإن شعوره بعدالة ضميره يملؤه عزة وثقة بالنفس.

ثانياً - ضميره لا يقسو عليه: ومن الطبيعى أن شخصاً هذا شأنه، يتحرى العدالة فى مواقفه المختلفة، وفى علاقاته بالآخرين، لا يقسو عليه ضميره، ولا يعاقبه بإزاء أى موقف يتخذه، أو بإزاء أى تصرف يأتیه. ذلك أنه يتحرى العدالة بغير انحراف إلى الإفراط أو إلى التفريط، ولا ينحرف مع التيار الذى يمكن أن يدفع به إلى طريق الضلال.

ثالثاً - الإحساس بالرضى بإزاء الماضى والحاضر: فصاحب الضمير العادل، يحس بصفة مستمرة بالرضى عن ماضيه من جهة، وعن حاضره من جهة ثانية. ذلك أنه ملتزم دائماً بعدالة الفكر والعاطفة والإرادة. فهو فى جميع علاقاته يناصر الحق وليس شيئاً غير الحق. ولا ينحرف بأى حال من الأحوال عن طريق الحق والفضيلة والاستقامة.

رابعاً - له هيئته بين المتعاملين معه: فصاحب الضمير العادل، يحس باستمرار، بما يحوزه من هيبة. ذلك أن جميع

أصحاب الضمائر الملتوية، يخشون بأسه، ويحاولون إخفاء معاييهم السلوكية عنه، وعدم تعرية انحرافاتهم في الذمة والضمير أمامه، لأنهم يعلمون أنه سوف لا يسكت إذا ما كاشفوه بما يخبئونه في صدورهم العفنة. ذلك أنهم يهابونه ويخشون بأسه، ويعجبون في الوقت نفسه بشجاعته وإبائه عن الانجراف مع أهوائهم الرديئة.

خامساً - يحظى بالحب من أمثاله من أصحاب الضمائر العادلة: فصاحب الضمير العادل، يُحس بأن مَنْ على شاكلته، يقدِّرونه كل التقدير، ويحترمونه كل الاحترام، بل ويمتزون بمواقفه الجليلة، التي يُضرب بها الأمثال في الشموخ، والبعد عن الدنيا، والاستقامة في الفكر والوجدان والإرادة، واتخاذ التصرفات السديدة في جميع المواقف الحرجة التي كثيراً ما ينصاع لها أصحاب الضمائر الهشة.

نقد الآخرين له:

وعلينا في نهاية المطاف أن نلقى الضوء على ما يمكن أن يوجَّهه الناس من حول صاحب الضمير العادل من نقد إليه، فنجد أنهم يحددون نقدهم على النحو التالي:

أولاً - اتهامه بأنه يعيش في بُرج عاجي: فالمحيطون بصاحب الضمير العادل، الزائفون عن طريق الحق والعدل،

يرمونه بالتخلف عن الحاضر، وما يزخر به من متغيرات، وأنه يعيش في عصر انقضى وانتهى، فهو يستمسك بمثل عليا بالية، لا تصلح لأن يتعامل بها المرء في العصر الحالي، ولن تصلح للتعامل بها في المستقبل القريب والمستقبل البعيد على السواء.

ثانياً - اتهامه بالكبرياء: والمنادون لصاحب الضمير العادل، كثيراً ما يتهمونه بالتكبر عليهم، وذلك لأنه لا يجالسهم ولا يماشيهم فيما ينهجون وفقه من انحرافات سلوكية، ويعتبرون أن ما يتهمونه به من كبرياء، إنما هو ثمرة للبيئة المنغلقة التي تربي فيها، وهي بيئة غير متفتحة، لا تفهم الحياة حق الفهم.

ثالثاً - اتهامه بالتآمر عليهم ونقل أخبارهم إلى الجهات المسؤولة: ومن الطبيعي أن يوجه الناقدون إلى صاحب الضمير العادل، الاتهام بأنه يُفشي أسرارهم، ويتجسس عليهم، ويَشِي في حقهم لدى الرؤساء. وهم يدأبون على تأليف القصص والافتراءات عليه، مؤكدين خيانتهم لهم، وأنه السبب الرئيسي فيما لحق بهم من أضرار، وفيما وُقِّع عليهم من جزاءات، مع أن الواقع أن ليس له أى ذنب أو جريمة في ذلك من قريب أو من بعيد.

رابعاً - تلفيق الاتهامات له وتقديم الشكاوى ضده:
فالمنابدون لصاحب الضمير العادل، يُحسّون أن وجوده يُشكّل
خطراً كبيراً يترئّص بهم، ولذا فإنهم يحاولون باستمرار أن
يكيلوا له الاتهامات، وأن يحرّروا ضده الشكاوى المجهولة،
فيقف أمام المحققين. والعيار الذى لا يصيب يدّوش كما يقال
فى الأمثال. فعلى الرغم من أن المحققين يجدون أنه برىء من
الاتهامات التى تتضمنها الشكاوى التى حرّرت ضده، فإنه
يحس بالحرَج والتوتر، ويحل عليه النكد والحزن، لأنه يتهم
بتهم باطلة لم يرتكبها، ولكن مع هذا فإنه يَعْلَم أن هذه هى
الضريبة المعنوية التى يجب عليه أن يسدّها، طالما أنه
متمسك باستقامة الرأى وبعدالة الضمير.

* * *

الفصل الحادى عشر

الضمير والصحة النفسية

معنى الصحة النفسية ؟ .

يحسبن بنا أن نلقى الضوء على مفهوم الصحة النفسية، حتى يتسنى لنا أن نتفهم العلاقة بين ما يجب أن تكون عليه، وبين الضمير. فالصحة النفسية تعنى مجموعة من الحالات التى نقدمها فيما يلى:

أولاً- المعنى التفاعلى: فالواقع أن هناك علاقة تبادلية حميمة فيما بين الصحة الجسمية والصحة النفسية. فالصحة الجسمية تؤثر فى الصحة النفسية، كما أن الصحة النفسية تؤثر فى الصحة الجسمية. فمن الخطأ أن يعزف المرء عن تناول الصحة الجسمية عند تناوله للصحة النفسية، بل لابد له أن يأخذ المستوى الصحى الجسمى لدى المرء فى اعتباره، حتى يتسنى له الوقوف على مستوى صحته النفسية. بيد أن

هناك تفاوتاً فى تأثير المقومات الجسمية المتباينة فى الصحة النفسية. ولعل أهم ما يؤثر فى الصحة النفسية، الجهاز العصبى المركزى وبخاصة المخ، والجهاز العصبى السمبتاوى والغدد الصماء بما تفرزه من هورمونات فى الدم مباشرة.

ثانياً - المعنى التكاملى: وهذا المعنى للصحة النفسية، ينصب على العلاقة التكاملية فيما بين وظائف العقل، أعنى الإدراك الحسى، والتذكر، والتخيل، وإحراز المفاهيم المجردة والمُعَمَّمة، وبين الوظائف الوجدانية، وبخاصة القدرة على تبلور الوجدانات حول موضوعات معينة، إما بطريقة إيجابية فينشأ الحب، وإما بطريقة سلبية فتنشأ الكراهية، وأيضاً بين الوظيفة الإدراكية والوظيفة الوجدانية من جهة وبين الوظيفة الإرادية من جهة أخرى، بما تتضمنه من الإقدام على عمل ما من جهة ، والقدرة على الانضباط ، والتوقُّف عن إخراج ما يعتل فى العقل إلى حيِّز الواقع السلوكى، وعما تنحو إليه العواطف من نزوع conation، وقمعها بدخيلة المرء.

ثالثاً- المعنى العقلانى: وهذا المعنى ينصبُّ على ما أهّل به المرء من ذكاء، أعنى القدرة على إقامة العلاقات بين الأشياء والمواقف والحالات والظروف التى تحيط به من جهة، والقدرة على اكتساب الخبرات التى تتضمنها المواقف والحالات

والظروف التى يمر بها المرء من جهة ثانية، والقدرة على
توظيف تلك الخبرات بطريقة أو بأخرى فى واقع الحياة من
جهة ثالثة. ثم هناك القدرات الخاصة التى تتعلق بالعمليات
المختلفة. فثمة قدرة خاصة بنوع معين من النشاط الذى
يضطلع به المرء، أقوى من قدرة أو من قدرات أخرى. فمثلاً
بالنسبة للشخص الموهوب فى الموسيقى، فإن قدرته الخاصة
التي تتعلق بالموسيقى، تكون لديه أقوى من قدرته الخاصة
بالرسم مثلاً. ثم هناك الوظائف المتعلقة بالذاكرة، أعنى حشد
المعلومات فى الذهن، بحيث يتسنى استرجاعها، أو الربط فيما
بينها، أعنى إقامة علاقات بين الذكريات السابقة والذكريات
التي تدلّ إلى الذاكرة حديثاً. ثم هناك الوظائف التي تضطلع
بها المخيلة من تكبير وتصغير، وتقديم وتأخير، وإناطة مواهب
وظائف لكائنات ليست لديها هذه المواهب والوظائف. وهناك
القدرة على التجريد والتعميم، والتفكير المنطقي المتجرد عن
الوقائع والأحداث الواقعية. ثم هناك أخيراً القدرة على
استشراف المستقبل، وتوقع الأحداث والنتائج التي يمكن أن
تترتب على توافر أسباب معينة، سواء قدمها المرء، أم قدمها
غيره، ويتوقع أن تقضى إلى نتائج معينة، ولكي يتسنى للمرء
أن يكون متمتعاً بالصحة النفسية الجيدة، فلا بد أن يكون لديه
القدر المعقول من هذه القدرات العقلية المختلفة التي تتعلق

بالمدركات الحسية، والذاكرة، والتخيل، والتنبؤ بالنتائج، والتجريد والتعميم. وبحيث يكون الجهاز العقلي لديه متكاملًا بعضه مع بعض، ومتعاونًا بعضه مع بعض.

رابعاً- المعنى التكيّفي: فكلما كان المرء متمتعاً بالقدرة على إقامة علاقات تبادلية ناجحة بينه وبين الناس الذين يتعامل معهم، وكلما كان متأثراً بهم من جهة، ومؤثراً فيهم من جهة أخرى، فإنه يكون متمتعاً إذن بمستوى صحى نفسى جيد. على أن الناس الذين يتعامل معهم المرء، يتباينون بعضهم عن بعض، كما أنهم يندرجون فى فئات يتجانس أفراد كل فئة منها بعضهم مع بعض. ولكن ليس شرطاً أن ينسجم المرء المتمتع بالصحة النفسية الجيدة مع جميع تلك الفئات الاجتماعية، أو حتى مع كل شخص يقابله، أو يتعامل معه فى الفئة التى يتجانس معها بصفة عامة. فالتكيف يجب أن يكون تكيّفاً انتقائياً، وليس تكيّفاً اعتباطياً. فكلما كان المرء مسيطراً على العمليات التكييفية وموجّهاً لها، ومنتقياً لما يروقه، ولما يماشى مستواه الثقافى ومستواه الاجتماعى، فإنه يكون إذن أكثر تمتعاً بالصحة النفسية الجيدة.

خامساً- المعنى الثقافى: والثقافة تتضمن الثقافة المعرفية، والثقافة المهارية، والثقافة القيمية، والثقافة التذوقية

الجمالية، والثقافة العلائقية الاجتماعية. ومن الخطأ بالتأكيد قصر مفهوم الثقافة فى نطاق المعنى المعرفى فحسب. فمجرد تناول المرء للقلم والورق لكى يكتب شيئاً على الورق، فإنه لا بد أن يكون قد اكتسب ثقافة مهارية خاصة باستخدام القلم والورق. ناهيك عن الكتابة على الآلة الكاتبة، أو على لوحة مفاتيح الكمبيوتر. ومن الخطأ بالطبع أن نُفعل أهمية القيم فى حياتنا الثقافية، سواء كانت قيماً دينية أم قيماً أخلاقية. ومن الخطأ أيضاً أن نفعل الثقافة التذوقية الجمالية، أو الثقافة العلائقية التى يكتسب المرء عن طريقها كيف يتعامل مع من هم فى مستواه، ومن هم أكبر منه، ومن هم أصغر منه. وكلما كان المرء أكثر ثقافة بإزاء النواحي الخمسة التى ذكرناها، كان بالتالى حائزاً على مستوى مرتفع من الثقافة.

الأدوار التى يلعبها الضمير فى الصحة النفسية:

وعلىنا بعد أن استعرضنا معنى الصحة النفسية، وما تتضمنه من جوانب وزوايا متباينة، أو نتفحص الدور الذى يلعبه الضمير بإزاء الصحة النفسية، فنجد أن هذا الدور يتضمن الأدوار الفرعية التالية:

أولاً- الدور التّموي: فالضمير يقوم بدور الرعاية والعناية بالصحة النفسية، وينتقى الوسائل التى إذا ما تدرّج

بها المرء، فإنه يحقق لنفسه النمو الصحى النفسى بجميع زواياه التى ذكرناها. ذلك أن الصحة النفسية بجميع فروعها الخمسة، لا تعدو أن تكون ثمرة لاعتمال الوسائل الإيجابية فى قوام المرء واستعداداته ومواهبه، فيتأتى عن ذلك الاعتمال، المستوى الصحى النفسى الذى يصل إليه. ولاشك أن الضمير إذا كان ضميراً غير واعٍ بالدرجة الكافية، فإن النمو الصحى النفسى يتخلّف عن المستوى السوى. وأكثر من هذا، فإننا نستطيع أن نزعم بحق أن الضمير الواهن، أو الضمير الذى لم يحظ بالصلاحيات اللازمة لحسن رعاية الصحة النفسية، يكون عاملاً مؤثراً فيما يصيب الشخصية من انحرافات وأمراض نفسية متباعدة.

ثانياً- الدور الرقابى: والضمير السوى، يكون حريصاً على تشديد الرقابة على مسيرة الصحة النفسية لدى المرء. وكلما كانت الرقابة الضميرية أكثر حزمًا ووعياً، فإن النتيجة المتأتية بإزاء الصحة النفسية تكون جيدة. ولكن الرقابة التى نقصدها ليست بمعنى التزمّت، ومصادرة حرية المرء، بل نقصد أن تكون الرعاية رشيدة، وغير متزمّتة، وغير متسببة، فى الوقت نفسه. وتتضمن الرقابة الضميرية الواعية، الحرص على التمتع بالصحة الجسمية الجيدة، وما يمكن أن تتأثر به، فينعكس ذلك التأثير فى الصحة النفسية. ناهيك عن الرقابة

الواعية بإزاء المؤثرات السلوكية، التي يمكن أن تحرف بمستوى الصحة النفسية.

ثالثاً- الدور التصحيحي: فثمة ما يعرف بالتربية الذاتية، التي بمقتضاها يقوم المرء بمراجعة نفسه، وتصحيح ما اعوج من سلوكه. ولاشك أن الضمير، هو الذي يضطلع بهذه العملية التربوية التصحيحية. ولعلنا نزعم بحق، أن التربية التي تصدّر إلى المرء من خارجه عن طريق الوالدين والمعلمين والكبار بشكل عام، تتآزر مع هذا النوع من التربية الذاتية، ويتأتى عن تآزرهما معاً، تصحيح الأخطاء السلوكية، وانتهاج خطوط سلوكية جديدة ذات مستوى أرفع من المستوى الذي كان عليه السلوك قبل هذا التآزر بين النوعين من التربية، أعنى التربية الغيرية، والتربية الذاتية.

رابعاً- الدور التأنيبي التوبيخي: ولكن الدور الذي يلعبه الضمير بإزاء التربية الذاتية لا يقف عند هذا الحد، بل يتعدى ذلك إلى ما يوجهه من تأنيب وتوبيخ إلى المرء، لأنه لم يضطلع بتلك التربية الذاتية على الوجه الأكمل، كما أنه لم يستفد بالتربية الغيرية التي قام بها الوالدان والمعلمون والكبار بصفة عامة بإزائه. ولقد يبالغ الضمير فيما يقوم به من تأنيب وتوبيخ، ويتأتى عن ذلك الفت في عضد المرء، وارتماؤه في حمأة اليأس والقنوط.

خامساً - الدور التشجيعى: وفى مقابل الدور التأنيبى التوبييخى، فإن الضمير يضطلع بدور مقابل، هو الدور التشجيعى. فعندما يقوم المرء بما يطالبه به ضميره على خير وجه، فيحس بتحسُّن أحواله النفسية، وتَقَدُّم صحته النفسية، فإن ضميره يرضى عنه، ويعمِد إلى تشجيعه، وتقريضه، والثناء عليه، كما يبشِّرُه بمستقبل أفضل من الحاضر والماضى جميعاً، وبالنجاح والسؤدد فى وضعه الاجتماعى، وفى تقيمه لنفسه، وتقديره لما يتمتع به من صحة نفسية عالية المستوى.

العقبات التى تعمل على إبطال عمل الضمير:

وعلىنا فى نهاية المطاف أن نستعرض العقبات التى تحوّل بين الضمير وبين العمل على الارتفاع إيجابياً بمستوى الصحة النفسية، وهى على النحو التالى:

أولاً- تمكّن العادات السيئة: فإذا ما استولت العادات السيئة على الشخصية، سواء كانت عادات عقلية، أم عادات وجدانية، أم عادات حركية أدائية، أم عادات علائقية اجتماعية، فإن الضمير قد يجد نفسه عاجزاً عن التأثير فى مقومات الشخصية، وبالتالى فإن حركته بإزاء التقدم بخطى حثيثة فى تربية المرء والارتفاع بمستوى صحته النفسية، تكون مشلولة وعديمة الفاعلية.

ثانياً- اعمتال الاستعدادات الوراثة الرديئة: فلقد يكون المرء قد ورث استعدادات نفسية رديئة، أو يكون تكوينه الجسمى، وبخاصة جهازه العصبى المركزى وغدده الصماء، مشتملة على عيوب موروثه، تتبدى آثارها فى شخصية المرء، ومن ثمَّ فإن ضميره لا يكون مستعداً للتدخل، بحيث يتسنى له تعديل ما أعوج من السلوك بفاعلية وتأثير، فى تلك الاستعدادات الوراثة الرديئة.

ثالثاً- المؤثرات التربوية الرديئة وبخاصة فى الطفولة: فالوالدان اللذان يدأبان على إهانة أطفالهما بالضرب والتقريع والتوبيخ باستمرار لأتفه الأسباب، قد يعرضانهم للإصابة بالانحرافات النفسية المتباينة، فلا يتسنى لهم التمتع بالصحة النفسية الجيدة، وبالتالي فإن ضمائرهم لا تستطيع أن تلعب أدوراً إيجابية بإزاء تعديل وتقويم صحتهم النفسية.

رابعاً - المكبوتات اللاشعورية: فالواقع أن ما يختزنه المرء عبّر مراحل عمره المتتالية، بدءاً بالطفولة، من مكبوتات لاشعورية، لا يظل هادئاً خامداً، بل يتفاعل بمضه مع بعض، فتتضاعف تلك المكبوتات، وتشتد قوتها وتأثيرها، وبالتالي فإن قدرة ضميره على التدخل والعمل على تقويم سلوكه وتعديله وتقويته من الشوائب يكون متعذراً.

خامساً- الرغبات والحاجات: فثمة دافعان يعتملان في قوام الناس بصفة عامة: الدافع الأول الانتحاء إلى إشباع الرغبات، والدافع الثاني الانتحاء إلى إشباع الحاجات. والرغبة قد تتوازي مع الحاجة، وقد تتعارض معها. فالطفل يرغب في أن يعطف عليه والده، ولكن حاجته إلى العطف يجب ألا يبالغ فيها، وإلا فإن تلك الرغبة تستحيل إلى تدليل، وتتعارض مع حاجته إلى الانضباط والخوف بالقدر المعقول، واستخدام الحزم معه. وكذا فإن رغبة التلميذ في اللعب، قد تتعارض مع حاجته إلى قضاء الوقت في الاستذكار. فبالنسبة للأشخاص الذين اعتادوا على أن ينساقوا وراء رغباتهم منذ طفولتهم، حتى ولو تعارضت تلك الرغبات مع حاجاتهم، فإن ضمائرهم تقف عاجزة عن ترشيدهم وتعديل سلوكهم، بل إن هؤلاء الناس يضرّيون بتوجيهات ضمائرهم عُرض الحائط.

* * *

الفصل الثانى عشر

الضمير بين الشجاعة والجبن

معنى الشجاعة :

حَرَىُّ بِنَا أَنْ نَلْقَى الضَّوْءَ عَلَى مَفْهُومِ الشَّجَاعَةِ، وَبَعْدَ ذَلِكَ نَلْقَى الضَّوْءَ عَلَى مَفْهُومِ الْجَبَنِ، حَتَّى يَتَسَنَّى لَنَا أَنْ نَقِفَ عَلَى عِلَاقَةِ الضَّمِيرِ بِكُلِّ مَنِهْمَا. فَالشَّجَاعَةُ تَعْنَى مَا يَأْتِى:

أولاً- الشجاعة لا تعنى عدم الخوف: فالشخص الشجاع يخاف ولكنه يستطيع أن يقدم استجابة لمشاعر الخوف المعتلة فى قوامه، مبالغة للاستجابة التى تبتأتى عن الشعور بالخوف. إنه يُحِلُّ محل استجابة الخوف الهروبية، استجابة بديلة تتسم بالإقدام، أعنى أنه يقدم استجابة إيجابية بدلاً من أن يقدم استجابة سلبية. فصاحب العمل الشجاع، يحس بالخوف عندما يقف على تأمر العاملين لديه عليه، ويخشى

الإضرار بمصالحه، فيعتمد إلى تقديم الحوافز والعلاوات لهم، دون أن يُظْهر لهم أنه يخشاهم، فيكون بذلك قد قضى على مصدر الخوف، وهو بوار أعماله، وتعطيل مصالحه، وابتلاؤه بالخسارة، وذلك بإحلال إجراء إيجابى هو منح الحوافز والعلاوات للعاملين عنده، محل ما كان يمكن أن يصيبه من ضياع، وارتقاء فى أحضان أخيلة تزد من خوفه من العواقب الوخيمة التى يمكن أن تترتب على توقُّف العمل وبواره. فهو لا بد أن يكون قد أحس بالخوف، ولكنه لم يتخذ الموقف الهروبى، والارتقاء فى أحضان ما استشعره من خوف ووهم، بل اتخذ إجراءات جعلته يقتل الخوف الذى كان مسيطراً عليه.

ثانياً- الإمام بالأسباب والنتائج: والشخص الشجاع يتمتع بالقدرة على إقامة رابطة بين أسباب خوفه، وبين ما يمكن أن يترتب عليها من نتائج. وبتعبير آخر فإن بمقدوره أن يربط بين أحداث الماضى، وأحداث الحاضر، وما يمكن أن يتمخض عنه المستقبل من نتائج وأحداث. فقد رته على الإمام بما هو موضوعى خارج نطاقه، يسمح له بأن يسيطر على دخيلته. وبتعبير آخر فإنه يقهر الذاتى بالموضوعى، أعنى بإعمال ذهنه فى الواقع الموضوعى، ويضعه فى حجمه الحقيقى، فلا يسمح بفضل ذكائه الواقعى بأن يترك لخياله العنان، فينحو إلى تهويل المواقف، أو إلى إضافة المجهول الوهمى إلى المعلوم الموضوعى.

ثالثاً - التسلّح بالوسائل الناجعة: ولكن الشخص الشجاع

لا يتوقف عند حدود المعرفة، ويكتفى بالوقوف على الواقع الخارجى، بل يتسلّح أيضاً بالأسلحة المناسبة للقضاء على مصادر الخوف، أو التخفّف من وطأتها على الأقل. وهو لا يقع على أى أسلحة كائنة ما كانت، بل إنه يقوم بالانتقاء من بين أنواع متعدّدة من الأسلحة التى يمكن أن يجابه بها الموقف الذى يخيفه، وينتهى من مقارنتها بعضها ببعض إلى اختيار أقواها وأمضاها، فيستخدمها بطريقة جيدة.

رابعاً - الاقتصاد فى استخدام الوسائل المتاحة: على أن

الشخص الشجاع يتحرى الاقتصاد فى استخدام الوسائل الناجعة التى قام باختيارها. فهو لا يَلِف ويدور، ولا يحاور ويداور، بل يختار أخصر الطرق التى تؤدى إلى إحراز النتائج الفعالة والمُرضية. فهو يهتم بأن يَقْضَى على مخاوفه بأسرع ما يمكن، وذلك بفضل ما يقع عليه اختياره من وسائل فعّالة وإيجابية، يرد بها على ما يستشعره من مخاوف. وبتعبير آخر فإن الخوف الذى يعتل فى قلب الشجاع لا يستغرق من الوقت سوى ثوان معدودات، وذلك لالتزامه بالاقتصاد فى الوقت، وفى استخدام الوسائل الإيجابية الفعّالة، التى تعمل على إطفاء حرائق الخوف التى بدأت تشتعل فى قوامه النفسى، وذلك بمجرد ظهور البوارد لاشتعالها.

خامساً - التسلّح بخبرات الماضى: والشخص الشجاع لا يبدأ من الصفر فى كل موقف جديد يثير الخوف لديه، بل إنه يرتكن إلى خبراته السابقة التى مربّها، والتى شكلت لديه ثروة عظيمة يستثمرها فى مجابهة المواقف الجديدة. فهو بماضيه المفعم بالمواقف، والمحاولات التى نجح بواسطتها فى تحطيم أوّثان الخوف، يكون قد اكتسب مجموعة من العادات العقلية الوجدانية والأدائية والعلائقية التى صار يستخدمها بطريقة شبه لاشعورية، بإزاء المواقف الجديدة التى يصادفها فى حياته، فتكون تلك العادات التى اكتسبها، وصار يمارسها بغير بذل للجهد، ذات فاعلية فى مواجهة المواقف الجديدة، وتحديّها والتغلب عليها، وتطويعها لصفّه، ولنضرته فى المواقف التى تحتاج منه إلى إبداء روح الشجاعة.

معنى الجبن:

وبعد أن ألقينا الضوء على مفهوم الشجاعة، فإن علينا أن نلقى الضوء على مفهوم الجبن، فنجد أن هذا المفهوم يتضمن الجوانب التالية:

أولاً - فوران المكبوتات اللاشعورية: فالشخص الجبان، يكون مفعماً بقدر كبير من المكبوتات اللاشعورية، المتعلقة بالمخاوف التى اكتسبها منذ طفولته، ومروراً بمراحل عمره

التالية. ومن المعروف أن المكبوتات اللاشعورية تتضاعف نتيجة التفاعلات الداخلية المعتملة بنشاط في أغوار اللاشعور بين ما تم اكتسابه منها. وما يتم اكتسابه بمرور الوقت، فيتأتى عن تلك التفاعلات الخبيرة تكوين مركب خبيرة هائل، هو مركب الخوف الذي يهيمن على مقاليد شخصيته، ويجعلها حساسة لأي موقف يتضمن ما يمكن أن يثير الخوف في قلبه.

ثانياً - سيطرة العادات العقلية والوجدانية والإرادية:
فالشخص الجبان يكون قد اكتسب مجموعة من العادات الانسحابية الهروبية من المواقف التي يجابهها، والتي تتضمن مقومات أو مثيرات تشيع لديه الخوف. فهو بدلاً من أن يكتسب عادات عقلية ووجدانية وإرادية إيجابية، فإنه يكون قد اكتسب عادات عقلية ووجدانية وإرادية سلبية، تحمله على الهروب والانزواء، مع ما يصاحب ذلك من خوف وهلع، وعجز عن التصرف، وعدم اتخاذ المواقف التي تقهر ما يعتمل في مقوماته النفسية من تخاذل وانهزام.

ثالثاً - العجز عن الوقوف على حقائق الواقع الموضوعي:
والشخص الجبان يكون في العادة منخفض الذكاء، أو على الأقل يكون شخصاً عاجزاً عن توظيف ذكائه في الواقع

الموضوعى، حتى يتسنى له الوقوف على ما يتضمنه ذلك الواقع الموضوعى من أشياء تخيف أو لا تخيف. ومن ثمَّ فإنه يضيف إلى الحجم الحقيقى لأخطار وأضرار الواقع، أخطاراً وأضراراً موهومة، تقوم مخيلته بتصنيعها، والعمل على تضخيمها، والزيادة فيما يمكن أن تحمله من خطورة عليه وعلى ذويه، أو على ممتلكاته، أو على مصدر رزقه.

رابعاً - افتقاره إلى الثقة بالنفس: فالشخص الجبان لا يثق فى متانة شخصيته، أو فى قدرته على الدفاع عن نفسه، بل على العكس من هذا فإنه يحس بالمعجز، وعدم القدرة على الذود عن حياضه. ولعل ما سبق له أن عاناه من مواقف تتسم بالخوف والهلع، تتفاعل هى أيضاً فيما بينها، لكى يتأتى عن تفاعلها مُركَّب خبرى هو مُركَّب الجبن، فتتبدى له فى منامه الأحلام المخيفة والكوابيس التى تحرمه من النوم الهادئ. ذلك أن مُركَّب الجبن لديه، يعمل بنشاط حتى فى أثناء نومه، فلا يستطيع أن يحظى بالنوم الهادئ، بل يظل التوتر جائئاً عليه، سواء خلال نومه أم خلال يقظته.

خامساً - عدم الثقة فى أى شخص: وعلى الرغم من أن الشخص الجبان يحتمى فى الآخرين، الذى يحس بأنهم يتَّسمون بالشجاعة، فإنه لا يثق فى أى منهم. فهو برغم

احتمائه فيهم، فإنه يتوجَّس منهم خيفة، ويعتقد أنهم قد يبطشون به في أى لحظة، وفي أى موقف، وأنهم حتى إذا ما ساندوه في أحد المواقف، فإنهم سوف يتخلَّون عنه في المواقف التالية. فلا أحد يمكن الاعتماد عليه على طول الخط؛ ومن ثمَّ فإن التقوقع على الذات، هو السبيل الوحيد الذى يمكن أن يضمن له الأمن والأمان.

ضمير الشجاع:

وعلينا بعد هذا أن نلقى الضوء على دور الضمير في حياة كل من الشخص الشجاع والشخص الجبان على التوالى. ولنبدأ بعمل الضمير في حياة الشخص الشجاع:

أولاً - لا يتحدى الضعيف أو المهزوم: فالضمير لدى الشخص الشجاع لا يسمح له بمناوأة من هو أضعف منه، أو من هُزِمَ أمامه في المواقف السابقة، بل يعطف عليهما، ويحاول جاهداً أن يأخذ بيديهما، حتى يتخلَّص الضعيف من تخاذله، وحتى ينهض المهزوم من كَبُوتِه، ويستعيد مكانته الضائعة بسبب هزيمته أمامه.

ثانياً - يناصر المظلوم ويتحدى الظالم: والشخص الشجاع، يعمد إلى بذل قصارى جهده، ويسخرُ جُل إمكاناته في سبيل رفع الظلم عن المظلومين، وتحدى الظالمين، بل إنه

يبدأ فى مهاجمتهم إذا لم يرفعوا، واستمروا فى إيقاع الظلم على الضعفاء أو المستضعفين. وهو لا يعرف إلى المناورات واللف والدوران سببياً، بل يطالب الظالمين برفع ظلمهم مباشرة، دون مساومات أو مناورات.

ثالثاً - يهتم بقضايا الفئات المظلومة أيضاً: والشخص الشجاع، لا يحصر اهتمامه فيما يتعلق بالأفراد فحسب، بل يؤلى اهتمامه بالفئات المظلومة أيضاً، ويناوئ الفئات الظالمة. وبتعبير آخر فإنه يوسع دائرة نشاطه الشجاع، بدءاً من الدوائر الضيقة المتعلقة بالأفراد المظلومين الذى يسعى لرفع الظلم عنهم، إلى الدوائر الواسعة التى تشمل الفئات التى تضم فى نطاقها العديد من الأفراد الذين يلقون الظلم فى موارد رزقهم، أو فى كرامتهم، بما يوقعه عليهم المتجبرون.

رابعاً - يجند ثقافته لمقاومة الظلم: فالشخص الشجاع، يصبو إلى التمكن من الوسائل التعبيرية من خطابة وصحافة، وبما يشارك فيه من مؤتمرات وندوات، لكى يفضح الظلم، ويناصر المظلومين. فهو يعبر عما يحسون به، وما ينوون تحته من نير السلب والنهب وأكل الحقوق، ومن معاكسات وعقبات يضعها الظالمون فى طريقهم، فهو يوظف مواهبه وإمكاناته المادية والأدبية فى سبيل مقاومة الظلم، وقهر الظالمين.

خامساً - لا يتخذ من شجاعته سُلماً للكسب أو لنيل

الشهرة: فالشخص الشجاع يعتقد أن الشجاعة وإعلاء كلمة الحق، ورفع الظلم عن كاهل المظلومين، يتضمن فى طياته، أعظم مكافأة وأرفع مجد، بلا طنطنة، وبلا تذرع بالوصولية، وبلا طمع فى كسب أو شهرة. فالشجاع يجد أن الشجاعة بمثابة تاج لا يراه إلا من يذوق طعم الشجاعة، ويتحلى بها. فهو يرى أن أى شئ آخر غير التذرع بالشجاعة لا يساوى شروى نقيير.

ضمير الجبان:

وعلىنا فى نهاية المطاف أن نلقى الضوء على ضمير

الشخص الجبان، فنجد أن ضميره ينحو إلى ما يأتى:

أولاً- التملق والوصولية: فالشخص الجبان يحس بخيبة

الأمل عندما يتملق من له عندهم مصلحة، أو من يستجلب رضاهم عليه، ولكنه لا يحظى بمراده. فيأخذ ضميره فى تأنيبه لأنه لم يلعب الدور المناسب بطريقة جيدة، ويأخذ فى لوم نفسه لأنه تملقهم أكثر من اللازم، أو لأنه قصر فى إطنابه لمن يجب أن يتقرب منهم.

ثانياً - الاعتياد على استدلال نفسه لمن بأيديهم الحل

والربط: والشخص الجبان اعتاد على سماع الكلام الخشن، أو تلقى الإهانات من الآخرين، وتجههمهم فى وجهه. فما دامت

وسائله الجبانة، تساعد على قضاء مصالحه، فليس من المهم أن تصان كرامته أو أن تتمرغ في الوحل. فشعوره بالضالة وفقدان قيمة شخصيته، يجعله بليد الإحساس، وغير آبه بما يوجهه إليه الآخرون من كلام جارح، أو بما يتخذونه بإزائه من مواقف مفعمة بعدم الاكتراث واللامبالاة والاحتقار.

ثالثاً - الهروب من المظلومين أو المعتدى عليهم: والشخص الجبان يتحاشى التعرض لأى مشكلة، كما أنه يتحاشى التدخل فى أى موقف، يكون من شأنه احتمال إصابته بالحرج، أو يفقد شفقة شخص ذو حيثة عليه. فمن يستنجدون به يهرب منهم، أو يحتج بالحجج الوهمية التى يمكن أن تقيه شر مجابهة المواقف التى تتسم بالشهامة والمروءة وتحدى الظالمين.

* * *

الفصل الثالث عشر

الضمير بين الحرية والانضباط

معنى الحرية والانضباط ؟

علينا أن نلقى الضوء أولاً على ما نقصده بالحرية والانضباط، قبل أن نحاول إمالة اللثام عن علاقة الضمير بهما. ولنبدأ بالوقوف على معنى الحرية والانضباط على النحو التالي:

أولاً- الذاتية والموضوعية: فلقد تكون الحرية متعلّقة بذاتية المرء، كما أنها قد تكون متعلّقة بالظروف الخارجية والعلاقات الاجتماعية السائدة حوله. وكذا فإن الانضباط قد يكون صادراً من ذاتية المرء، فينضبط سلوكه بباعث من دخليته، كما أنه قد يكون صادراً عن التزامات خارجية تجبره على إلجام سلوكه، أو على صبه في قوالب مجهزة له من قبل.

ثانياً - التفكير الحر والتفكير المنضبط: والتفكير قد يكون

متحرراً من القيود التى يفرضها عليه المجتمع، كما قد يكون ملتزماً بتلك القيود، ومراعياً لها. بيد أن الحرية والانضباط بإزاء التفكير نسيان فى الواقع. فليس هناك تفكير حر حرية مطلقة، كما أنه لا يوجد تفكير منضبطاً انضباطاً مطلقاً، ولكن يحكم على التفكير بأنه حر، أو بأنه منضبط، فى ضوء الصبغة السائدة عليه. فالمرء يكون حرّاً فيما يفكر فيه إلى حد ما، ومنضبطاً أيضاً إلى حد ما، فيكون مقيّداً ومنضبطاً فى الغالب عندما يقوم بتجسيد فكره فى كلام، أو فى ملامح وجه، أو فى حركات أو تصرفات.

ثالثاً - العاطفة الحرة والعاطفة المنضبطة: وكذا فإن العاطفة قد تكون متحررة، كما أنها قد تكون منضبطة. فالمرء قد يطلق العنان لعواطفه للتعبير عن نفسها، كما أنه قد يضبطها، ويسمح لها بالتعبير عن نفسها فى نطاق الصيغ التى يقبلها المجتمع، أو فى حدود ما يقبله الأشخاص الذى توجه إليهم تلك العاطفة، سواء بالحركات أم بالكلام أم بالنظرات أم بغير ذلك من وسائل التعبير عن العواطف، سواء كانت عواطف حب، أم كانت عواطف كراهية.

رابعاً - الإرادة الحرة والإرادة المنضبطة: وكذا فإن إرادة المرء، قد تكون حرة بإزاء بعض التصرفات والمواقف، كما أنها

قد تكون مُلجَمة ومنضبطة بإزاء تصرفات ومواقف أخرى. والواقع أن المجتمع يحدّد المجالات والمواقف التي يُسمَح فيها بأن تعبّر فيها الإرادة بحرية عن نفسها، كما يحدّد المجالات والمواقف التي يجب على المرء أن يُلجِم إرادته بإزائها، ولا يسمح لها بالتعبير عن نفسها، إلا في الحدود التي يسمح بها، ويوافق عليها.

خامساً - الحرية الفردية والحرية الفنية: فالواقع أن من الممكن أن ننظر إلى الحرية والانضباط من زاوية الفرد، كما يمكن أن ننظر إليهما من زاوية الفئات الاجتماعية، باعتبار أن كل فئة منها تُشكّل وحدة فردية متعيّنة. فكما أن الفرد يتمتع ببعض الحريات، بينما تُفرض عليه بعض القيود والضوابط السلوكية، كذا الحال بالنسبة للفئات الاجتماعية. فالفئة الاجتماعية تتمتع ببعض الحريات، كما تُفرض عليها بعض القيود والضوابط، وذلك في ضوء الوضع الاجتماعي الذي تحتله بالمجتمع.

أهمية الحرية والانضباط للفرد والجماعة:

وعلىنا بعد هذا أن نلقى الضوء على أهمية الحرية والانضباط للفرد والجماعة، فنجد أن هذه الأهمية يمكن أن نتحدّد على النحو التالي:

أولاً - بالنسبة للاستعدادات والمواهب: فالواقع أنه إذا لم تتوافر الحرية للفرد والجماعة، فإنهما لا يستطيعان استثمار ما فى قوامها من استعدادات ومواهب. ولكن من جهة أخرى، فإن الانضباط يكون بمثابة القائد الذى يحدد الطريق المناسب والمفيد، لاستثمار الاستعدادات والمواهب بالطريقة السليمة، ولتحقيق أهداف وغايات اجتماعية مرغوب فيها. ومعنى هذا أن الحرية تُعبّر عن انطلاق الاستعدادات والمواهب، كما أن الانضباط يعبر عن المسالك الخليقة بأن تُصَبّ فيها تلك الاستعدادات والمواهب، وأن الحيد عنها، معناه التخبط فى أى اتجاه بغير تمييز بين الخير والشر، أو بين المناسب وغير المناسب، أو بين المفيد والضار.

ثانياً - بالنسبة لاستقلال الشخصية وديناميتها: فلولا الحرية التى يتمتع بها الفرد وتتمتع بها الجماعة، ما كان لهما إذن أن يُحررا استقلال شخصيتيهما، وما كان لهما أيضاً أن يتمتعا بالدينامية، أعنى انبثاق السلوك من دخليتيهما. فالواقع أن الضغوط الخارجية إذا زادت عن حدها المعقول، فإنها تخرج عن حدود الانضباط إلى نطاق التّعنت، وبالتالي إزالة الملامح التى تتفرد بها شخصية الفرد، أو شخصية الجماعة. فالانضباط إذن مطلوب لا لمسح الحرية، بل لترشيدها، ومساعدة شخصية الفرد وشخصية الجماعة على التمييز والتفرد.

ثالثاً - إبراز الفروق الفردية بين الأفراد، والفروق الجماعية بين الجماعات: فالواقع أن الحرية التى يجب أن يتمتع بها الأفراد والجماعات، هى التى تؤهلهم لأن يتباينوا بعضهم عن بعض، من حيث المستويات، ومن حيث السمات الشخصية لكل فرد، ومن حيث السمات الجمعية لكل جماعة. بيد أن الانضباط يعمل أيضاً بالتعاون مع الحرية على إبراز الفروق الفردية والفروق الجماعية. ذلك أن الفرد يستعين بالانضباط الذاتى لكى يحافظ على إنيتته من الانصهار والاندماج فى إنيات الأشخاص الآخرين، كما أن الجماعة كائنة ما كانت، تستعين بالانضباط الجمعى لكى تحافظ على إنيتها من الانصهار والاندماج فى إنيات الجماعات الأخرى.

رابعاً- الانتقال من بين الخيارات المتوافرة بالواقع الخارجى: فالحرية التى يتمتع بها الفرد، أو تتمتع بها الجماعة، تسمح لهما بأن يعقدا المقارنات بين الخيارات الكثيرة المتوافرة بالواقع الخارجى، سواء فى ذلك بالنسبة للفرد، أم بالنسبة للجماعة. وفى ضوء تلك المقارنات، يتسنى لهما أن يقعا على الخيارات المناسبة للمستوى النمائى الذى توصلا إليه. والتى تكون مناسبة لاستعداداتهما ومواهبهما، ولما يمكن أن يفضى إلى نتائج أفضل، وإلى فوائد أكثر فى الحاضر والمستقبل جميعاً.

خامساً - الإفادة من النقد الذاتي ومن النقد الخارجى:
 هلولا تمتع الفرد والجماعة بالحرية النسبية، ما كان لهما إذن،
 أن يفيدا من توجيه النقد إلى ذاتيتهما من جهة، ولما كان لهما
 أن يفيدا من النقد الذى يُوَجَّه إليهما من خارج نطاقهما من
 جهة أخرى. فالواقع أن الفرد أو الجماعة اللذين تصدر
 حرّيتهما، ويكون الانضباط الموجَّه إليهما مبالغاً فيه، يفقدان
 القدرة على تسيير قوامهما، وتعديل سلوكهما بانطلاق ذاتى
 من دخيلتيهما، بل يظلان فى حالة خضوع مستمر لما يُفرض
 عليهما من قيود، أو من توجهات، من خارج نطاقهما، وليس من
 خلْقهما أو نتيجة استحسانهما.

الدور الذى يلعبه الضمير بإزاء الحرية والانضباط:

وعلينا بعد هذا، أن نقوم بإلقاء الضوء على الدور الذى
 يلعبه الضمير بإزاء الحرية والانضباط، فنجد أن هذا الدور
 يمكن أنه يتحدّد على النحو التالى:

أولاً- التقييم والتمييز: فالواقع أن الضمير الفردى،
 والضمير الجمعى، يقومان بالتقييم والتمييز بين الخيارات
 الكثيرة التى توجد بالمواقف المتباينة. وكلما كان التوازن
 متوافراً بين الحرية والانضباط، سواء بالنسبة للفرد، أم
 بالنسبة للجماعة، فإن قدرة الضمير على التقييم والتمييز،
 تكون على جانب أكبر من الكفاءة والفاعلية.

ثانياً - اتخاذ القرار المناسب: وكذا فإن الضمير يكون أكثر قدرة على اتخاذ القرار المناسب، بإزاء كل موقف من المواقف الكثيرة التي تجابه الفرد والجماعة، ما دام التوازن متوافراً فيما بين الحرية والانضباط.

ثالثاً- محاسبة الفرد والجماعة على الفرص الضائعة: فالواقع أن الضمير يقوم بلّوم الفرد ولّوم الجماعة بإزاء ما فوّته من فرص كانت الحرية المنضبطة متوافرة خلالها أمامهما، ولكنهما لم يستغلّاهما الاستغلال الأمثل. فالضمير لا يهدأ له بال، إذا ما قصّر صاحبه في حق نفسه، سواء كان فرداً أم جماعة.

رابعاً - شحذ الهمة لاستثمار الفرص المقبلة:

ولكن الضمير السوى، لا يُلْقَى باللوم على طول الخط، بل إنه إلى جانب معاتبته للفرد والجماعة على تفويت الفرص التي كانت متاحة أمامها لاستغلالها ، فإنه يثير فيهما الحميّة أيضاً ، لكي يشمّرَا عن ساعد الجد ، وتحين الفرص المقبلة ، لاستغلالها أحسن استغلال ، ولاستشفاف دروس ناجمة من أخطاء الماضي ، ونفض غبار التواكل والتقاعس الذي ران عليهما ، بينما كانت الفرص المتاحة أمامهما متوافرة لبلوغ مستويات عليا من التقدم والازدهار ، ولكنهما لم يستغلّاهما في حينها .

خامساً - الحث على التذرع بالوسائل الناجعة: والضمير السوى لدى الفرد والجماعة ، يدأب على حثهما على الاستعانة بالمعرفة الجيدة وبالمهارات المفيدة ، وبالقيم الفعالة المثمرة، وبالعلاقات الاجتماعية الخصبة ، بحيث يمكن بواسطة هذه الذرائع وغيرها ، أن يشقا طريقهما بنجاح فى الحياة، وأن يَبْلُوا بلاءً حسنًا فى المستقبل القريب والمستقبل البعيد على السواء .

أخطاء الضمير بإزاء الحرية والانضباط:

وعلىنا فى نهاية المطاف أن نلقى الضوء على أخطاء الضمير بإزاء الحرية والانضباط لدى الفرد والجماعة على السواء ، وهى على النحو التالى :

أولاً - الخلط بين الحرية والتسيب: فلقد يكون ضمير المرء أو ضمير الجماعة ، غير متمتعين بالقدرة الكافية على التمييز بين الحرية والتسيب . فلا يأخذان الانضباط فى حسابهما ، بل يرغبان فى أن تكون الحرية التى يتمتع بها الفرد أو تتمتع بها الجماعة، حرية مطلقة غير مقيدة بأى قيد، وبالتالى فإنهما يخلطان بين تمتع الفرد أو الجماعة بالحرية وبين انطلاقهما لا يلويان على شىء، ولا يستمسكان بالقيم والتقاليد والأعراف الاجتماعية .

ثانياً - الخلط بين الانضباط وبين التجبر: ولقد يتخذ ضمير الفرد أو ضمير الجماعة الموقف العكسى المناهض للموقف السابق ، فيعتبران أن الحرية بأى معنى وبأى مستوى، إنما هى إفساد للشخصية ، وضياح للضوابط التى يجب أن تُلجمها . فهما لا يرغبان فى تحقيق التوازن بين الحرية والانضباط ، بل يرغبان فى أن يسود الانضباط بأعنف أشكاله ومعانيه، أو بتعبير آخر فرض القيود الصارمة على فكر المرء وفكر الجماعة وعواطفهما وإرادتهما .

ثالثاً - التذبذب بين الحرية والانضباط: ومن الأخطاء التى يمكن أن يتردّى فيها ضمير الفرد أو ضمير الجماعة ، عدم الثبات على سياسة واحدة بإزاء الحرية والانضباط، بل الانحياز للحرية المطلقة فى بعض الأوقات ، وفى بعض المواقف ، ثم الانحياز للانضباط فى أوقات أخرى ومواقف أخرى . فلا تكون ثمة صبغة ثابتة نسبياً للشخصية الفردية أو للشخصية الجماعية .

* * *

الفصل الرابع عشر

الضمير والتردد بين موقفين

بعض حالات التردد بإزاء الخيارات :

لقد يحدث أن يكون المرء موقف من موقفين ، أو خيار من خيارين ، ويكون عليه أن يقع على واحد منهما ، ويترك الآخر . ولا شك أن الضمير يلعب دوراً في مثل هذه الحالة . ولكن قبل أن نلقى الضوء على ذلك الدور الذي يلعبه الضمير ، فإن علينا أن نلقى الضوء على جانب من الحالات التي يتردد بإزائها المرء بين موقفين أو بين خيارين ، فنجد ما يأتي :

أولاً - الاختيار بإزاء الطعام : فلقد تتجه إلى أحد المطاعم لتناول إحدى الوجبات ، فيقدم إليك الجرسون قائمة بالأطعمة الموجودة ، فتجد أمامك مجموعة من الوجبات الشهية التي تحبها جميعاً . ولكن حبك لتناولها ليس على مستوى واحد ، بل تفضل بعضها على بعضها الآخر . فتأخذ في حذف الأقل

اشتھاءً لتناوله ، واحداً بعد الآخر ، إلى أن يتبقى أمامك نوعان من الأطعمة تحار في اختيار واحد منهما وترك الآخر . وتظل خلال برهة من الزمن في حيرة من أمرك ، إلى أن تقع على أحد الخيارين ، وتنتهي إلى اختيارك له .

ثانياً - الاختيار بإزاء الملبس : والشئ نفسه ، قد يحدث عندما تذهب إلى محل الملابس لتختار بدلة فتشتريها . إنك قد تقف أمام بدلتين تعجب بهما على نفس المستوى من الانبهار بهما ، وتستولى عليك الحيرة بإزاء البدلة التي سوف تختارها منهما ، وتظل في حالة تردد بعض الوقت ، إلى أن يقع اختيارك النهائي على واحدة منهما .

ثالثاً - الاختيار بإزاء شريك العمر : ومن الخيارات الخطيرة في حياة المرء ، اختيار شريك الحياة أو شريكة الحياة . لقد تكون قد أقمت علاقة صداقة مع زميلتين بالكلية التي تدرس فيها ، أو في مقر العمل الذي تعمل به ، وقد توطدت علاقتك بهما جميعاً ، ولكنك لا تجد ميزة في إحداهما ليست متوافرة في الأخرى . فهما على مستوى واحد من جميع الجوانب ، من حيث الجمال والثقافة والأصل والمستوى الاقتصادي إلى آخر تلك المعايير التي تتصف بها كل منهما ، والتي تقاس في ضوءها شخصية من ترغب في

الارتباط بها فى الزواج . وكل منهما تعاملك بروح المودة والحب ، وتميل إليك كما يبدو من ملامح وجهها ، ومن طريقة تعاملها معك ، ومن تجاذب أطراف الحديث معك . ولكن لابد أن يقع اختيارك على واحدة منهما ، وأن ترجح كفة اختيارك لها ، وأن تفضلها على الزميلة الأخرى . ولكنك تقف أمام عملية الاختيار فى حيرة ، فتضرب أخماساً فى أسداس ، وتقول لنفسك « إن التى سوف لا يقع اختيارى عليها وأهجرها ، سوف تقطع صلتها بى ، وقد تحقد على وتبغض زميلتها التى فضلتها عليها ، مع أن الوشائج بيننا قوية ، وهى صديقة حميمة لتلك الزميلة التى سوف يقع اختيارى عليها دونها ، مع أنها ليست أفضل منها ، بل إنهما على قدم المساواة ، فى كل شيء » .

رابعاً - بإزاء المفاضلة بين وظيفتين : والموقف المحير نفسه يتبدى أمامك ، إذا كانت أمامك وظيفتان أنت مؤهل للالتحاق بأى منهما ، وقد تقدمت بالفعل إلى جهتى العمل المتباينتين اللتين رحبتا بك للتعيين ظرفهما ، أما عن المرتب فهو واحد بالنسبة للوظيفتين ، وهما فى المدينة نفسها التى تقطن فيها ، والميزات فى كل منهما مساوية للميزات فى الوظيفة الأخرى . ولكن لابد من حسم الموقف ، وأن تقبل التعيين فى واحدة منهما . وها أنت قد قبلت فعلاً لكى تُعينَ بهما ، إذ وصلتك

خطاب من كل من المؤسستين ، يرحب فيهما المسؤولين بك ،
ويخبرك بقرار التعيين فوراً . فأنت لذلك فى حيرة من أمرك
ذلك أن المرتب واحد فى الوظائفتين ، والمستقبل يبشر
بالخير إذا ما التحقت بهذه أو بتلك . فمن الطبيعى أن تأخذ
بك الحيرة كل مأخذ ، وأن تظل فى حيرتك هذه إلى أن تقرر
اختيار وظيفة منهما ، دون أن يكون لديك المبرر الكافى
للاختيار .

خامساً - المفاضلة بين تحدى الأشرار وبين مسألتهم :
ولقد تكون المفاضلة التى عليك أن تحسمها ، متعلقة بالطريقة
التي تتعامل بها مع من يعتدون عليك . فهل تقابل عدوانهم
عليك بتجنُّبهم ، والابتعاد عن طريقهم ، ومسألتهم على طول
الخط ، وتنفيذ ما يرغبون فيه لتهديتهم ، وتحاشى غضبهم ،
وإشعال حرائق الغيظ ضدك ، أم أن تظهر لهم أنياب غضبك ،
وتعلن لهم أنك لا تخشى بأسهم ، وأنت على استعداد لنزالهم ،
وأنت خليك بإيقاع الهزيمة بهم ، علماً بأن أبواب الشرطة
والنيابة والمحاكم مفتوحة على مصاريعها للنيل منهم ، وأن
تؤكد لهم بأن نَفْسك طويل ، وأنت لا تتبرم بما يمكن أن ينشأ
بينك وبينهم من قضايا طويلة الأمد . إلى آخر تلك الإجراءات
المضادة ، بل والإجراءات الهجومية التى فى مُكَنَّتِكَ . بيد أنك
تتردد بين الانتحاء إلى الاتجاه السلمى وبين الانتحاء إلى

الانتحاء إلى الاتجاه الدفاعى الهجومى الذى تقابل بمقتضاه اللطمة بلطمة مماثلة أو أشد إيلاًماً ، والعدوان بعدوان مماثل أو أشد منه . وهكذا يستمر ترددك لوقت يقصر أو يطول إلى أن تنتهى إلى قرار ، سوف يتبعه تنفيذ فلسفة من هاتين الفلسفتين : إما المهادنة ، وإما الرد على الهجوم بهجوم مماثل أو أقوى مما ل لقيته من عدوك .

موقف الضمير فى حالة التردد بين الخيارات :

وبعد أن قدمنا هذه العيّنات الخمس من التردد فى الاختيار من بين خيارين على مستوى متقارب ، أو على مستوى مساو ، من حيث القيمة أو الأهمية بالنسبة للمرء الذى عليه أن يقع على خيار واحد من بين كل خيارين ، فإن علينا أن نلقى الضوء على موقف الضمير فى حالة التردد بين الخيارات التى تصادف المرء فى حياته ، فنجد أن هذا الموقف يتحدد على النحو التالى :

أولاً - التقييم المقارن : فضمير المرء يأخذ فى المقارنة بين الخيارين اللذين يوجدان أمامه ، من زوايا متباينة . فهو يوازن فيما بينهما من زاوية الفائدة والضرر ، ومن زاوية الجمال والقبح ، ومن زاوية الحلال والحرام ، ومن زاوية المتانة والهشاشة ، إلى آخر الزوايا التى تتناسب مع طبيعة

ووظيفة الشئيين ، أو الموقفين ، أو الإجراءين اللذين يعقد المرء المقارنات فيما بينهما .

ثانياً - التقييم التوظيفي : فضمير المرء يأخذ في تقييم كل ثنائية من تلك الثنائيات التي يتردد في اختيار طرف من طرفيها ، في ضوء مدى قدرته على توظيف كل منهما . فكل ثنائية يقابلها ، لابد أن يُقْلَبْها على أوجهها المتباينة ، حتى يتسنى له أن يختار قطباً من قطبيها لكي يوظفه ، ويفيد منه . فهو يتساءل بينه وبين نفسه ، عما إذا كان قد اكتسب المهارات المناسبة لتوظيفه ، أو للتعامل معه ، فيقع على الأكثر قدرة لديه على توظيفه .

ثالثاً - المقارنة فيما بين النتائج التي تترتب على الاختيار: وضمير المرء وهو أمام الاختيار من بين قطبي إحدى الثنائيات التي عرضنا لعيّنات منها ، يكون قطباها متساويين أو متكافئين من حيث القيمة ، يعتمد إلى التطلع إلى النتائج التي سوف تترتب على اختيار قطب من قطبيها ، ويقارن بين النتائج المحتملة التي يمكن أن تتأتى عن الوقوع على اختيار كل قطب من القطبين ، ويقلّب مقارناته على أوجهها الممكنة .

رابعاً - المقارنة فيما بين الصعاب أو العقبات والمشكلات التي يمكن أن تترتب على الاختيار : وضمير المرء ، يتصفح أيضاً الصعاب والعقبات والمشكلات التي يمكن أن تترتب على

اختيار أى فرع من فرعى الثنائية التى يجابهها ، وعلى الانتحاء إلى اختيار فرع من فرعيها ، وهل سوف يتسنى له أن يتغلب على تلك الصعاب والعقبات ، وأن يتسنى له القيام بحل تلك المشكلات التى سوف تجابهه ، إذا ما قرر اختيار فرع من الثنائية التى يَحَارُ فى الانتقاء من بين قطبيها .

خامساً : الإيحاء والتقليد : وبالإضافة إلى ما ذكرناه قبلاً ، فإن ضمير المرء يقارن موقفه بموقف الآخرين ، الذين يُكِنُّ لهم التقدير والاحترام ، ويثق فى قدرتهم على الاختيار الحصيف . فهو يهدأ بالاً إذا ما ضرب فى الطريق الذى ضرب فيه أولئك الأشخاص الذين يثق فى حسن تصرفهم ، وسلامة انتقائهم . ولعله يتخذ من بين أولئك الأشخاص مُثَلاً علياً لا يأتيتها الباطل من بين يديها ولا من خلفها . فهم معصومون من الطيش والخطأ فى الاختيار . ومن ثَمَّ فإنه يقتبس من سلوكهم ، ويحتذى بهم ، حتى يضمن لنفسه حسن الاختيار ، والتنزه عن الوقوع فى الخطأ ، أو الانحراف عن الجادة ، بإزاء ما انتحوا إليه من خيارات مُصِيبَة وسديدة .

أخطاء الضمير بإزاء الخيارات :

ولعلنا نتساءل بعد هذا عن الأخطاء التى يمكن أن يتردَّى فيها الضمير بإزاء الخيارات التى تتطرح أمامه لكى يقع على

خيار من بين خيارين ، عليه أن يبت فى اختيار أحدهما ،
فنجد أن تلك الأخطاء يمكن أن تتحدّد فيما يلى :

أولاً - الوقوع فى مطب الوسوسة: فالشخص الموسوس، يقف أمام الخيارات التى تتوافر فى الموقف ، دون أن ينتهى إلى خيار منها ، فلا يتسنى له أن يرسو على بر الاختيار الذى يطمئن إليه ، ويعتمد عليه ، ولا يغيّره . والواقع أن الشخص الموسوس ، إما أن يقف أمام الخيارين يحيل فيهما ذهنه ، دون أن يتسنى له التوصل إلى قرار ، وإما أنه يتذبذب بين الخيارين المطروحين أمامه ، فيختار واحداً منهما ، ويؤكد لنفسه ، ولن حوله ، أنه لن ينتقل من خياره إلى أى خيار آخر، ولكنه ما يفتأ أن ينبذ ما اختاره بالفعل ، وينتقل إلى الخيار الآخر ، ثم يعود مرة ثانية قنائلة فرابعة إلخ ، إلى التنقل بين الخيارين إلى ما لا نهاية . وهذا هو دأب الشخص الموسوس .
(انظر كتابنا سيكولوجية الشك دار غريب بالقاهرة) .

ثانياً - رفض الخيارين جميعاً : ومن الأخطاء التى يمكن أن يتعرض لها الضمير ، رفضه للخيارين اللذين يوجدان بالموقف ، ثم العودة إليهما وإعادة التفكير فيهما ، ثم رفضهما ، ثم العودة إليهما بالتفكير والمقارنة . وهكذا دواليك إلى ما لا نهاية .

ثالثاً - الاختيار الاعتباري : ومن أخطاء الضمير ، انتحاء صاحبه إلى الاختيار دون تبصُّر بما يقوم باختياره ، فهو يختار عشوائياً ، بغير انتقاء على أى أساس كائن ما كان . وبتعبير آخر فإن اختياره يكون رهن المصادفة البحتة ، إذ إنه لا يكلف خاطره بأن يُنعم النظر فى اختياره ، بل ينحو إلى العشوائية ، أو إلى الارتكان إلى ما قد يحمله له الحظ الباسم .

رابعاً - الاعتماد على الآخرين فى الاختيار : وقد يكون صاحب الضمير فاقداً الثقة بالنفس ، بينما يعتقد أن من بين الناس الذين يُؤلِّهم ثقته ، من يتسنى لهم الاختيار له وبدلاً منه . أما إذا هو جازف وقام بالاختيار فى استقلال عن مشورة وإرادة الآخرين ، فإن اختياره سوف يكون بكل تأكيد اختياراً خائباً . فالضمير فى هذه الحالة ، يكون ضميراً عيلاً على الآخرين ، ولا يكون له أى حظ من القُطَام النفسى .

خامساً - الضمير النادم : ولقد يكون صاحب الضمير ، من النوع الذى يحس بالخطأ بإزاء أى خطوة يتَّخذها فى حياته . فبعد أن يقع اختياره بتبصر وتفهم وروية ، فإنه يستشعر الندم يحز فى قلبه . ومهما كانت النتائج التى تترتب على ما قام باختياره طيبة ، ولم يكن يطمع فى أن يحوز نتائج أفضل من تلك التى حصل عليها ، فإنه يدأب بصفة مستمرة

على الشعور بالندم ، بعد أن يقوم بالاختيار بحرية وروية ،
وبعد أن يحصل على النتائج الطيبة نتيجة اختياره . ولكنه
التشكك في شخصيته ، وفي نجوع اختياراته ، وعجزه عن
الاعتماد على نفسه ، بينما لسان حاله يؤكد له بصفة مستمرة ،
أنه لو كان قد قام غيره بالانتقاء والاختيار له بدلاً منه ، من
بين الخيارات المتوافرة في الموقف ، لكان اختياره إذن أفضل
مما انتهى إليه ، واختاره بنفسه . وهذا هو الحضيض الذي
يتردد في الشخص صاحب الضمير النادم باستمرار ، على
جميع الخطوات التي يتخذها بمحض إرادته ، حتى بعد
التمحيص والتمعن والروية .



الفصل الخامس عشر

ضمير المبدع

خصائص شخصية المبدع :

قبل أن نلقى الضوء على ضمير المبدع ، علينا أن نتناول شخصيته بالتحليل ، لنقف على ما تختص به من خصائص ، فنقف على الحقائق التالية :

أولاً - التبرُّم بالمألوف والمعتمد : فعلى الرغم من أن المبدع يتمرَّس بمجموعة من العادات العقلية ، والعادات الوجدانية ، والعادات الحركية ، والعادات التعبيرية ، والعادات العلائقية ، فإنه لا يركِّز طموحه في نطاقها ، بل إنه يتبرُّم بكل ما هو مألوف ومعتمد وممارس في الواقع الاجتماعي ، ويصبو إلى اكتشاف المجهول غير المسبوق ، وتقديمه إلى المهتمين بتلقُّف الجديد المبتكر . ولكنه بعد أن يصل إلى ذلك الجديد الذي لم يسبقه أحد إليه ، فإنه يعتبره مألوفاً ومعتمداً بالنسبة له ، وبالتالي فإنه يتبرُّم بما انتهى إلى ابتكاره ، ويتشوّف إلى ما هو جديد لم يصل إليه هو شخصياً بعدُ . وبتعبير آخر فإن المبدع دائم الاشتياق إلى تقديم ما لم يسبق له أو لغيره أن قدّمه .

ثانياً - التقييب الدائم عن كنوز استعداداته ومواهبه
المطمورة بدخيلته : والمبدع يحس بأن ما استطاع استثماره من
استعداداته ومواهبه ، ليس سوى شذرات قليلة من الكثير
جداً المطمور بأغواره الداخلية . فهو في تقييبه عن تلك
الكنوز النفسية المطمورة ، قد ينجح وقد لا ينجح في كشف
النقاب عنها ، واستثمارها وتوظيفها في الواقع العملي . وكلما
وُفق إلى استثمار جانب من تلك الاستعدادات والمواهب ، فإنه
يحس بأنه لم يقيض له سوى استثمار شذرات قليلة مما في
جُعبته منها ، وأن البون شاسع بينه وبين استثمار جميع
ما لديه مما لم يستثمره بعد .

ثالثاً - التفاعلات الخبرية بدخيلة المبدع : والمبدع يمتاز
بأن التفاعلات الخبرية التي تتم في قوامه الداخلي ، خصبة
للفاية ، ومتزايدة باستمرار ، وعلى أكبر جانب من الدقة ،
فيترتب على اعتمادها ، تكوين مركب خبري ، يستمر في
التفاعل مع خبراته الجديدة . فالمبدع لا يبدأ من الصفر في كل
موقف ، يتصل بالفكر أو بالوجدان أو بالإرادة ، بل يبدأ من
حيث انتهى إليه مُركِّبه الخبري من نمو ونضج . فقيامه
باستثمار ما في جُعبته من استعدادات ومواهب ، يتم بين آخر
مستوى توصل إليه مُركِّبه الخبري ، وبين ما يتسنى له
اكتشافه من استعدادات ومواهب مطمورة بدخيلته .

رابعاً - التفاعل المستمر مع أحداث الماضي ووقائع الحاضر وتوقعات المستقبل : والمبدع لا يسجن عقله ووجدانه وإرادته ، فى زنزانه الحاضر ، بل يمتد بأفقّه إلى الماضي والمستقبل . فهو يرى الزمان فى وَحْدَةٍ متفاعلة بعضها مع بعض ، ومتّصلة اتصالاً وثيقاً بعضها ببعض . ذلك أنه لا يرى لوجوده قيمة ، إلا بتحقيق الاستمرارية والاتصالية والتفاعلية بين ماضيه وما اكتسبه خلاله من خبرات ، وبين حاضره المغمى بالأحداث والوقائع . وبين مستقبله الذى يمتد بخياله إليه ، ويُشكّل بإزائه صوراً ذهنية نابضة بالحياة ، يحاول اقتناصها وإحالتها إلى واقع حاضر .

خامساً - ترجيح الرمزية على الواقعية : فعلى الرغم من أن المبدع يؤثّر فى الواقع من حوله بشكل مُبهر ، فإنه فى الحقيقة ، يُرَجِّح كفة الرموز فى حياته على الواقع ، أو قل إنه يُخضع الواقع للرموز التى تشير إليه ، أو إنه يجند الوقائع المحسوسة ، لخدمة الرموز التى تمتلئ فى ذهنه ، فتقوم بتشكيل تلك الوقائع المحسوسة ، لتحقيق أهداف يترسّمها .

الدور الذى يلعبه ضمير المبدع :

وبعد أن قمنا بتقديم هذه الخصائص الخمس الأساسية فى شخصية المبدع ، فيكون علينا أن نقوم باستطلاع الدور الذى يضطلع به ضميره فى حياته الإبداعية ، فنجد أن هذا الدور يمكن أن يتحدّد على النحو التالى :

أولاً - الندم على الوقت الضائع غير المستثمر : فضمير المبدع يؤثِّبُه على ما فاتته استثماره من وقت ، عبَّر حياته الماضية ، منذ طفولته ومروراً بمراهقته وشبابه . فهو يعتقد أنه لو كان قد استثمر كل ما مرَّ في حياته الماضية من فرص ، لكان مستوى إبداعه اليوم أفضل مما توصَّل إليه بالفعل ، وعلى مستوى أسمى ، ولكان بالتالى قد وُفِّقَ ، فى المجال الذى يهتم به ، إلى إبداعات كثيرة وعظيمة ، ورائعة الجودة ، وبالغة الفائدة ، وعلى أعلى مستوى من القيمة .

ثانياً - تحاشى مُشتتات الفكر ومُضيَّعات الوقت : وحيث إن المبدع يحس بالندم على إضاعة جميع الفرص التى فلتت من قبضته ، عبَّر مراحل عمره السابقة ، فإنه بالأولى يهتم بعدم إضاعة أى لحظة من وقته الحالى ، دون استثمار . وبالتالى فإنه يتحاشى كل ما يمكن أن يؤدى إلى تشتيت انتباهه ، وضياع طاقته ، فى غير ما حدَّده من أهداف ومَرام ، يرجو تحقيقها . وهى الأهداف والمَرامى التى يعمل على تجديدها بصفة مستمرة ، فيكون بذلك خصباً باستمرار فى فكره ، وفى آماله وطموحه .

ثالثاً - الشعور بنقص الإمكانيات والمهارات : ومهما قيَّض للمبدع من إمكانيات ومهارات ، فإنه يحس فى قرارة نفسه ، بأن ما فى حوزته منها ، أخفض مستوى من إمكان تجسيد كل ما يعتمل فى عقله من صور ذهنه ، بنفس مستوى نصابها

وحيويتها ، وذلك بسبب عجزه عن تجسيدها وإخراجها إلى حيز الواقع ، نتيجة انخفاض مستوى إمكانياته ومهاراته ، وانحصارها في نطاق ضيق .

رابعاً - تحقيق التوازن بين الاعتكاف وبين التعامل مع الواقع والتفاعل معه : فالمبدع يحاول باستمرار أن يحقق التوازن بين دخيلته وخارجيته . ذلك أن الشخص الذي يخاصم الواقع أو يخاصم دخيلته ، لا يتسنى له أن يتمتع بالصحة النفسية الجيدة . أما الشخص الذي يتسنى له تحقيق التكامل فيما بين الصور الذهنية ، والوجدانات الفائرة، والنزوعات conations المتحفزة للاستجابة إلى إرادة فاعلة من جهة ، بين الواقع الخارجى الذى يُعجُّ بالأحداث المتلاحقة، والمواقف المتباينة ، والعلاقات الثرية ، فإنه يستطيع إذن أن يقدم ما هو جديد ، ومتَّصف بالإبداع .

خامساً - الثقافة الأفقية والثقافة الرأسية : فالشخص المبدع ، لا يكتفى بأن يقطف من كل شجرة زهرة ، وأن يُلِمَّ بأكبر قدر من الثقافة المتنوعة ، بل إنه يعمد إلى التعمق في فرع معين من الثقافة ، ويُوليه بأكبر قدر من جهده ووقته . ولا غنى للمبدع عن الثقافة بالمعنى الأفقى وعن الثقافة بالمعنى الرأسى التعمقى . فهو يزاوج بين الثقافتين ، وكل ما يصل إليه من ثقافته يتفاعل معه ، بواسطة مركَّبه الخبرى الذى ذكرناه قبلاً . وبمناسبة الثقافة ، فإن المبدع يجمع في نطاقه الخبرى،

الثقافة المعرفية الاستقبالية ، والثقافة المعرفية التصديرية ،
والثقافة المهارية ، والثقافة العلائقية الاجتماعية ، والثقافة
الاستشفافية المستقبلية . فهذه الروافد الخمسة للثقافة ،
تتكامل فيما بينها فى شخصية المبدع . وهو يحاسب نفسه
بواسطة ضميره إذا كان قد حُرِمَ من أى رافد من هذه الروافد
الخمسة ، ولم يحصل بإزائه على القدر الكافى منه ، أو لم
يحظ بالنصيب العادل من أى منها جميعا .

الأخطاء التى يقع فيها ضمير المبدع :

وعلىنا بعد هذا أن نستعرض الأخطاء التى قد يقع فيها
ضمير المبدع ، فنجد أن هذه الأخطاء يمكن أن تتحدد فيما
يلى :

أولاً - الانتحاء إلى الإبداع الهدمى التخریبى : فلقد
تكون نفسية المبدع مريضة ، ومنحرفة إلى طريق الشر .
فليس جميع المبدعين أصحاب ضمير خيرٍ وسوى ، بل إن
بعضهم يكون مفعماً بالشر ، وملتوياً من الناحية النفسية .
فصاحب الضمير الملتوى من المبدعين ، يصب إبداعاته إلى
الشر ، بما يتضمنه من هدم وتخریب .

ثانياً - إنفاق الجهد الإبداعى فى الفسق والفجور : فلقد
ينحرف ضمير المبدع ، فتغلبه النوازع الشريرة ، ويدفع به
بريق السلوك المنحرف جنسياً أو عدوانياً إلى ألوان السلوك

المنحرف أخلاقياً . فكم من مبدعين ، وكم من أشخاص لديهم استعدادات ومواهب إبداعية ، قد رُجَّ بهم في السجون ، بسبب انحرافاتهم السلوكية . وبدلاً من الإشارة إليهم بالبنان ، وتعظيم شأنهم ، فإنهم يُعتبرون من سِفلة القوم ، وممن شجعوا غيرهم على الانجراف في طريق الشر والمجون .

ثالثاً - السقوط في هوة الجنون : ومن بين أخطاء الضمير أيضاً ، التي يمكن أن يقع فيها بعض المبدعين ، الانخراط في منزلق الجنون . وقد يتأتى ذلك نتيجة لمقاطعة الواقع ، والانكفاء على الذات ، أو عكس هذا ، بالانهماك في الواقع الخارجى ، ومخاصمة النوم ، وعدم هضم الخبرات المستمدة من ذلك الواقع الخارجى ، فالشخص صاحب الإبداعات المذهلة ، يمكن أن يصير بين فئة المجانين العقلانيين ، أعنى أولئك الذين ينسلخون عن الواقع الخارجى تماماً ، أو يمكن أن يصير من فئة المجانين الاجتماعيين ، أعنى أولئك الذين يهاجمون الناس من حولهم ، ويأتون بالتصرفات المشينة التي تتنافى مع ما يرضاه المجتمع وبياركة ، ويماشى المنطق والعقل الرصين .

رابعاً - الأوهام والإحباطات : ولقد يصاب ضمير المبدع بالأوهام ، فيعتقد مثلاً أنه بإبداعاته قد أضل الكثير من المراهقين والشباب ، أو قد يصاب بالإحباطات التي تتأتى له من نسج خياله . فلقد يتساءل بينه وبين نفسه ، عما عاد

عليه من فائدة ، أو تميز ، بعد أن أفضى عمره فى الإبداعات التى أفادت غيره ، ولم تُفدْ من قريب أو من بعيد . ويتأتى عما قد يساور المبدع من أوهام وإحباطات ، توقُّفه عن الاستمرار فى الإبداع ، فينضب مَعِينه ، ويتخلف عن الركب ، ويهبط إلى مستوى الأشخاص العاديين ، أو أقلَّ منهم مستوى.

خامساً - السير فى الطريق المختصر إلى الشهرة وذيوع الصيت : فالكثير من المبدعين ، يخشون على أنفسهم من عدم تسليط الأضواء عليهم ، ومن أن يفوتهم قطار الشهرة وذيوع الصيت ، وبالتالي فإنهم يندفعون إلى وسائل الإعلام ، يبحثون فيها عما يعلن عن عظمة إبداعاتهم ، فيجرفهم تيار الشهرة ، وقد يتكالب الممسكون بوسائل الإعلام عليهم ، فيفقدون بذلك أعظم كنز كان فى أيديهم ، وهو العمل فى هدوء بعيداً عن الإعلام والإعلاميين ، وفى الظل بعيداً عن الأضواء . فكم من مبدع فقد قدرته على الإبداع بعد أن سلَّطت عليه الأضواء فماتت قدراته الإبداعية ، أو قل إنها اختفت لأنها لا تثمر إلا فى الظل بعيداً عن الأضواء .

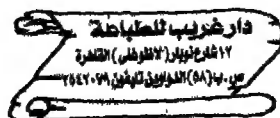
* * *

الفهرس

الصفحة

الموضوع

٣	المقدمة
٥	الفصل الأول : معنى الضمير
١٥	الفصل الثاني : الضمير والتربية الذاتية
٢٤	الفصل الثالث : الضمير والذكريات
٣٤	الفصل الرابع : الضمير والمكبوتات اللاشعورية
٤٤	الفصل الخامس : الضمير والقيم الاجتماعية
٥٤	الفصل السادس : الضمير بين صلابة المبدأ ومرونة الواقع
٦٥	الفصل السابع : الضمير والميل للانتحار
٧٥	الفصل الثامن : الضمير الملتهب
٨٥	الفصل التاسع : الضمير الفاتر
٩٥	الفصل العاشر : الضمير العادل
١٠٥	الفصل الحادى عشر : الضمير والصحة النفسية
١١٥	الفصل الثانى عشر : الضمير بين الشجاعة والجبن
١٢٥	الفصل الثالث عشر : الضمير بين الحرية والانضباط
١٣٤	الفصل الرابع عشر : الضمير والتردد بين موقفين
١٤٤	الفصل الخامس عشر : ضمير المبدع





هذا الكتاب

يتناول موضوعاً من أهم الموضوعات التي تشغل جميع الناس، وهو من صميم الموضوعات التي يجب أن يُؤليها المفكرون بالاهتمام والدراسة، وبخاصة من يبحثون في أغوار النفس البشرية، والمهتمين بالوقوف على أسرار شخصية الإنسان. وفي هذا الكتاب، يتناول المؤلف موضوع الضمير بطريقة موضوعية، ومن زوايا عديدة. ولعلّه أن يكون الأول الذي يتناول هذا الموضوع الخطير بطريقة موضوعية.

إنه كتاب جدير بالتناول والتأمل من جانب جميع المثقفين بغض النظر عن اهتماماتهم الثقافية،،،

هاني أحمد غريب